

رواية
مكتبة ياسمين
فيليب روث
الحيوان المُحتضر
ترجمة: أسامة منزلجي

الحيوان المُحتضِر



Author: **Philip Roth** | اسم المؤلف: فيليب روث

Title: **The Dying Animal** | عنوان الكتاب: الحيوان المُحتضِر

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800

☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017

☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275

☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

فيليب روث

الحيوان المُحتضِر

ترجمة : أسامة منزلجي



الجسد كما العقل يحتوي قصّة الحياة.

إدنا أوبراين

فيليب روث

وُلِدَ فيليب روث في نيويورك عام 1933. نوفيللاه الأولى «وداعاً كولومبوس» الصادرة عام 1959، لفتَتْ أنظارَ النُّقاد إليه وحازت على جائزة الكتاب الوطني للرواية، يُعَدُّ أهمَّ روائيّ في أميركا حسب استطلاعات القُرّاء، يصفه النُقّاد بأنه امتدادٌ لوليم فوكنر ولسكوت فيتزجيرالد صاحب غاتسبي العظيم... حصل على 19 جائزة أدبيّة، أشهرُها بوليتزر ومان بوكر الدولية، وثلاثَ مرّات جائزة فوكنر، يُعَدُّ واحداً من أهمّ أربعة كُتّاب في تاريخ الأدب الأميركي إلى جانب وليام فوكنر وسول بيلو وجون أبدايك.

فاز فيليب روث عام 1997 بجائزة بوليتزر عن روايته American Pastoral (الكاهن الأمريكي). تسلَّم روث عام 1998 ميدالية الفنون الوطنية في البيت الأبيض. وفي عام 2002 تلقَّى أعلى جائزة من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب والميدالية الذهبيّة في الآداب التي مُنحت سابقاً لكلٍّ من جون دوس باسوس وويليام فوكنر وسول بيلو من بين آخرين. فازَ مرَّتَين بجائزة الكتاب الوطنية وجائزة بين/ فوكنر وجائزة حلقة نُقّاد الكتب الوطنية. في عام 2005 تلقى عن روايته The Plot Against America (المؤامرة على أمريكا) جائزة جمعية المؤرِّخين الأمريكيين على «هذه الرواية التاريخية المُذهلة ذات الثيمة الأمريكية بين 2003-2004»، وجائزة دبليو. إتش. سميث لأفضل كتاب سنوي وهذا بدوره حوّل روث إلى أول كاتب يربح الجائزة مرتين في تاريخ الجائزة البالغ ستة وأربعين عاماً.

في عام 2005 أصبح روث ثالث كاتب أمريكي على قيد الحياة مِمَّن نَشرت لهم مكتبة أمريكا أعمالَهم في مجلَّدات شاملة وكاملة. تلقَّى عام

2011 ميدالية العلوم الإنسانية الوطنية في البيت الأبيض وتمَّت تسميتُه لاحقاً ليكون المُتلقِّي الرابع لجائزة مان بوكر العالمية. في عام 2012 حظي بأكبر تكريم إسباني «جائزة الأمير أسترياس» وفي عام 2013 تلقَّى أكبر تكريم فرنسي Commander of the Legion of Honor. توفّي فيليب روث عام 2018.

تعرَّفتُ عليها قبل ثمانية أعوام. كانت في صفّي الدراسي. لم أعُد أُدرِّس بدوام كامل، وبالتحديد لم أعُد أُدرِّس أيّة مادة أدب - منذ أعوام عديدة لم أعُد أُدرِّس إلّا صفّاً واحداً، حلقة دراسيّة عليا كبيرة، جذبتُ إليها عدداً كبيراً من الإناث، وذلك لسببين، لأنّه موضوع يتألّف من مزيج مُغرٍ من الرونق الفكريّ والرونق الصحفيّ ولأنهنّ كنَّ قد استمعنَ إليّ على أثير محطة إذاعة NPR وأنا أُقدِّم مُراجعات للكتب أو شاهدنني على شاشة «ثيرتين» أتحدّث عن الثقافة. وعلى امتداد أكثر من خمسة عشر عاماً، جعل كوني ناقداً ثقافيّاً في البرنامج التلفزيونيّ مني شخصيّة معروفة محلّيّاً، ولهذا السبب انجذبنَ إلى صفّي الدراسي. في البدء، لم أُدرك أنَّ التحدّث على شاشة التلفزيون مرّة في الأسبوع مدة عشر دقائق يمكن أنْ يكون أمراً مؤثّراً كما اتَّضحَ بالنسبة إلى أولئك الطالبات. لكنّهنَّ كنَّ ينجذبنَ إلى الشهرة بصورة لا تقاوَم، على الرغم من ضآلة شهرتي.

الآن، أنا ضعيف أمام الجمال الأنثويّ، كما تعلم. وكل إنسان لديه نقطة ضعف أمام شيءٍ ما، وهذه هي نقطة ضعفي. فحالما أراه لا أرى أيّ شيءٍ آخر. إنّهنّ يأتين إلى صفّي الأول، وفي الحال تقريباً أعلم مَنْ هي فتاتي. ولمارك توين قصة يفرّ فيها هارباً من ثور، فيرفع الثور نظره إليه وهو مُختبئ فوق شجرة، ويقول له، «أنتَ وجبتي، يا سيدي». وكلمة «سيدي» هذه تتحول إلى «سيدتي الشابة» عندما أرى إحداهنّ في صفّي. ثم مرّت ثمانية أعوام - كنتُ قد بلغتُ سن الثانية والستين، والفتاة التي اسمها كونسويلا كاستيللو، كانت في الرابعة والعشرين، لم تكن تشبه أياً من الأخريات في الصفّ، بل لم تبدُ أنّها طالبة، على الأقلّ ليس طالبة عاديّة. لم تكن شبه مُراهقة، ولا فتاة

مترهّلة، شعثاء، مبتلاة بكونها «تشبه غيرها». كانت مفوّهة، رصينة، وذات وِقفة مثاليّة- وبدا أنها تعرف شيئاً عن حياة البالغين إلى جانب معرفتها كيف ينبغي أنْ تجلس، وتقف، وتمشي. وحالما كنتَ تدخل غرفة الدرس كنتَ ترى أنَّ الفتاة إما تعرف الكثير أو ترغب في المعرفة. ولا يمكن القول إنها كانت بالضبط أنيقة في ملبسها، وحتماً لم تكن متوهّجة، ولكن، أولاً، لم تكن ترتدي الجينز قط، سواء أكان مكوياً أم غير مكويّ. كانت حريصة في ملبسها، وذات ذائقة هادئة في ارتداء التنانير، والفساتين، والبنطلونات المفصّلة. كانت ترتدي ما يجعلها تبدو كسكرتيرة جذّابة في شركة حقوقيّة ذات هيبة، ليس لغرض الابتعاد عن المظهر الحسّي ولكن، كما بدا، لكي تظهر بمظهرٍ احترافيّ. كسكرتيرة لرئيس مجلس إدارة مصرف. كانت ترتدي بلوزة من الحرير بلون الكريما تحت سترة رياضيّة فضفاضة زرقاء مُفصّلة بأزرار ذهبيّة، وتحمل محفظة يد بنيّة من الجلد الغالي منحها مظهراً قديماً جميلاً، وتنتعل حذاءً صغيراً يتماشى معها، وتلبس تنورة منسوجة رماديّة مرنة قليلاً تُبرِز خطوط جسدها بأقصى ما في استطاعة تنورة أنْ تُبرِز. وتصفِّف شعرها بطريقة طبيعيّة ولكن بعناية. كانت بشرتها شاحبة، وكان الفم مُقوَّساً على الرغم من أنَّ الشفتين ممتلئتين، وجبينها مستديراً، لامعاً يتَّسِم بأناقة ونعومة تماثيل برانكوزي[1]. كانت من كوبا، عائلتها كوبيّة ثريّة تعيش في جيرزي، على الطرف المقابل من النهر في مقاطعة بيرغن. كان شعرها أسود فاحماً، لامعاً لكنّه خشن قليلاً. كانت ضخمة. امرأة ضخمة. بلوزتها محلولة الأزرار حتى الزر الثالث، وهكذا ترى أنّها صاحبة ثديين جميلَين، قويَّين. وترى في الحال الشقّ. تدرك أنها تعلم هذا. تدرك، على الرغم من اللياقة، والدقّة، والأسلوب الأنيق بحذر -أو بسبب ذلك- أنها تعي نفسها. جاءتْ إلى الصف الأول والسترة محلولة الأزرار فوق بلوزتها، ومع ذلك فبعد مرور خمس دقائق على الدرس، خلعتها. وعندما نظرتُ من جديد نحوها، رأيتُ أنها عادت فارتدتها. وهكذا يُفهَم من هذا أنّها تعرف موطن قوتها لكنّها ليست متيقّنة كيف تستخدمها، وماذا تفعل بها، بل كم

1- كونستانتن برانكوزي (1876-1957): مثّال روماني، كان يتميَّز بأشكال الحيوانات ذات الخطوط الانسيابيّة التجريديّة. - المترجم

تريدها. إنَّ ذلك الجسد ما زال جديداً بالنسبة إليها، وما زالت تجرِّبه، وتفكِّر فيه، كطفل يسير في الشوارع ويحمل مُسدّساً مشحوناً ويُقرّر أنْ يستخدمه لحماية نفسه أو لبدء عيش حياة إجراميّة.

وكانت تعي شيئاً آخر، وهذا الأمر لم أستشفّه من اجتماع واحد لأحد الصفوف: لقد وجدتْ أنَّ الثقافة هامّة بطريقة توقيريّة، عتيقة الطراز. وهذا ما لم ترغب في العيش على أساسه. لم ترغب فيه ولم يكن في استطاعتها أنْ تنفّذه -فقد نشأتْ نشأة جيدة منعتها من العيش بطريقة مغرقة في التقليديّة- لكنه كان أمراً هاماً ورائعاً أكثر من أي شيء عرفته. وهي التي وجدت الرسّامين الانطباعيين مُبهرين ولكنها أطالت النظر والتمعّن -ودائماً مع حسٍ بالخزي المُزعج- إلى لوحات بيكاسو التكعيبيّة، وبذلتْ أقصى طاقتها لكي تفهمها. كانت تنظر إلى اللوحات في انتظار الإحساس الجديد المُفاجئ، للفكر الجديد، للانفعال الجديد، وعندما لم يأتِ، قط، اتّهمتْ نفسها بالنقص وبالافتقار إلى... إلى ماذا؟ ولامتْ نفسها على كونها لا تعرف حتى ما الذي تفتقر إليه. لم يكن الفن الذي يتَّسِم بالحداثة يُحيِّرها فقط بل يدفعها إلى الشعور بالإحباط أيضاً. كانت تودّ لو تكون لبيكاسو أهميّة أكثر بالنسبة إليها، وربما أنْ تغيِّرها، ولكن كانت هناك ستارة أُسدِلتْ على واجهة مسرح العبقريّة حجبتْ رؤيتها وتركتها تتعبَّد من مسافة معيَّنة. لقد وَهَبَت الفن، الفن كلّه، أكثر بكثير مما أخذتْ منه، ما يُشبه الرصانة التي لا تخلو من السِحر الفائق. كانت صاحبة قلب طيب، ووجه جميل، ونظرة ثابتة مُغرية وشاردة معاً، وثديين رائعين، وكانت امرأة حديثة العهد بحيث لم يكن غريباً العثور على قطعٍ دقيقة من صَدَفَة مكسورة مُلتصِقة بذلك الجبين البيضاويّ. وقد اكتشفتُ في الحال أنَّ تلك الفتاة سوف تُصبح فتاتي.

الآن لديّ قاعدة واحدة راسخة نتيجة خمسة عشر عاماً من الثبات لم أكسرها قط. لم أعُد أتّصل بهنّ لسبب خاصّ إلّا بعد أنْ أنهين الامتحان الختامي وحصلن على علاماتهن ولم أعُد رسمياً في مقام والدهن. وعلى الرغم من الغواية -أو حتى الإشارة الصريحة لبدء الغزل والقيام بالخطوة الأولى- لم أكسر تلك القاعدة منذ منتصف حقبة الثمانينيات، عندما وُضِعَ رقم الهاتف الخاص بالإبلاغ عن حالات التحرّش الجنسيّ خارج باب

مكتبي. ولم أعد أتّصل بهنَّ في وقتٍ مُبكِّر كي لا أتورَّط في الجامعة مع الذين قد يعملون بجديّة، إنْ استطاعوا، على إعاقة استمتاعي بالحياة.

واظبتُ على التدريس طوال أربعة عشر أسبوعاً في كل عام، وخلال تلك الفترة لم أُقِم علاقات جنسيّة معهنّ. بدل ذلك كنتُ أقوم بخدعة. خدعة شريفة، خدعة صريحة وعلنيّة، لكنها خدعة في كل الأحوال. فبعد الامتحان الختامي وحالما توضع العلامات، كنتُ أُقيم حفلة في شقّتي من أجل الطلاب. وكانت دائماً تنجح ودائماً متشابهة. كنتُ أدعوهم لشرب كأس عند حوالي الساعة السادسة. كنتُ أقول إننا نشرب من الساعة السادسة وحتى الثامنة، وكانوا دائماً يمكثون حتى الساعة الثانية صباحاً. والشجعان منهم كانوا يتحولون، بعد الساعة العاشرة، إلى شخصيات مرحة ويبوحون لي باهتماماتهم الحقيقيّة. في الحلقة الدراسيّة حول النقد العمليّ كانوا حوالي عشرين طالباً، وأحياناً يصلُ عددهم حتى خمسة وعشرين، بحيث تكون بينهم خمس عشرة فتاة، أو ست عشرة فتاة وخمسة شبان أو ستة، بينهم اثنان أو ثلاثة أسوياء جنسيّاً. كان نصف المجموعة يُغادر الحفلة مع حلول الساعة العاشرة. وفي العموم، كان شابٌ سويّ جنسياً، وربما آخر مثليّ جنسيّاً، وحوالي تسع فتيات، يمكثون. وكانوا دائماً من أشدّهم تهذيباً وذكاءً وجرأة. كانوا يتحدثون حول قراءاتهم، وحول ما يستمعون إليه، وما شاهدوا من الأعمال الفنيّة المعروضة – أي ما يتحمسون له ولا يتحدثون بشأنه في المعتاد مع أهاليهم الأكبر سناً أو بالضرورة مع أصدقائهم. كانوا يتعرّفون بعضهم على بعض في خلال درسي. وتعرّفوا عليّ. وقد اكتشفوا فجأة في أثناء الحفلة أنني كائن بشريّ. أنا أستاذهم، ولستُ ما تمثّله سُمعتي، ولست والدهم. لديّ شقّة مزدوجة مُنظّمة، ومُريحة، وشاهدوا مكتبتي الكبيرة، والممرات التي تفصل بين رفوف كتب ذات وجهين وتضم قراءات حياتي بأكملها وتشغل تقريباً مركز الطابق السفليّ برمّته، وشاهدوا آلة البيانو، ولاحظوا تكريسي لعملي، ومكثوا.

في إحدى السنوات كان أكثر طلابي فكاهة أشبه بتلك العنزة في الحكاية الخياليّة التي تلج ساعة الحائط لتختبئ. وطردتُ آخرهم عند الساعة الثانية صباحاً، وفي أثناء توديعهم لاحظتُ غياب إحدى الفتيات. فقلت

«أين مُهرّجة صفّنا، ابنة بروسبيرو؟»، قال أحدهم «أوه، أعتقد أنَّ ميراندا غادرتْ»، ثم رجعتُ إلى داخل الشقّة لأباشر عمليّة تنظيف المكان فسمعت أحد الأبواب في الطابق العُلويّ يُغلق. باب الحمّام. وإذا بميراندا تهبط الدَرَج، وهي تضحك، متوهّجة بما يُشبه التهتّك الأحمق -لم أكنْ، حتى تلك اللحظة، قد أدركتُ كم هي جميلة- وقالتْ «أليس هذا تصرّفاً بارعاً؟ كنتُ مُختبئة في حمام الطابق العُلويّ، والآن سوف أُضاجعك»

كانت ضئيلة الحجم، طولها حوالي خمسة أقدام ونيِّف، وخلعت سترتها وأرتني حلمتَي ثدييها، كاشفة عن الجذع المُراهق لعذراء انتهكت للمرة الأولى من وضع الرسّام بالتوس[1]، وطبعاً تضاجعنا. وطوال الأمسية، وعلى غرار صبيّة فرَّتْ من الميلودراما الخطِرة لإحدى لوحات بالتوس إلى مرح الحفلة التي يُقيمها طلاب الصف الدراسيّ، كانت ميراندا تركع على أربع على الأرض ومؤخرتها تبرز أو تتمدَّد منبطحة بعجز على الأريكة أو تستلقي بمرح على ذراعَي كرسي مُريح وتبدو غير واعية أنها بتنورتها المشدودة حول فخذيها وساقيها المنفرجتين بلا احتشام أصبحتْ كأنها شبه عارية وهي في كامل ملابسها على غرار فتيات لوحات بالتوس. كل شيء مُستتر ولا شيء محجوب. والعديد من تلك الفتيات بدأنَ يُمارسن الجنس وهنَّ في الرابعة عشرة، ومع بلوغهن عشرينيات أعمارهن كانت واحدة أو اثنتان منهن يتغلّب عليهما الفضول لممارسته مع رجلٍ في مثل سنّي، ولو مرّة واحدة، وتتوقان إلى نقل ذلك الخبر إلى صديقاتهما، اللواتي تتغضن وجوههن ويسألن «ولكن ماذا عن بشرته؟ أليست رائحته كريهة؟ وماذا عن شَعره الأبيض الطويل؟ وماذا عن جلد عنقه الرخو؟ وماذا عن بطنه المنتفخ قليلاً؟ ألا تشمئزان منه؟»

لاحقاً أخبرتني ميراندا، «لابد أنكَ ضاجعتَ العديد من النساء. أردتُ أنْ أعرف كيف يشعرن»، «ثم؟». ومن ثم قالت أشياء لم أُصدّقها تماماً، ولكن لا بأس. لقد كانت متهورة -اكتشفتْ أنَّ في استطاعتها أنْ تفعل ذلك،

1- بالتاسار كلوسوفسكي دي رولا (1908-2001): رسّام فرنسي من أصل بولندي، معروف برسمه للفتيات المراهقات. - المترجم

على الرغم من أنها كانت ربما تُقامر وتشعر بالرعب في أثناء اختبائها داخل الحمّام. لقد اكتشفتْ مدى شجاعتها في مواجهة ذلك التجاور المألوف، وقُدرتها على قهر مخاوفها الأوّليّة وأي اشمئزاز ابتدائيّ وكنّا- فيما يتعلّق بالتجاوُر - قد أمضينا معاً وقتاً ممتعاً. ميراندا المتمدِّدة، المُهرِّجة، المرحة، تقفُ على قدميها وتستعرض ملابسها الداخليّة. كانت متعة النظر وحدها شيئاً جميلاً. على الرغم من أنّ ذلك لم يكن الجائزة الوحيدة. لقد أنجزَت العقود التي توالت منذ عقد الستينيات عملاً رائعاً في استكمال الثورة الجنسيّة. وهذا جيل مُدهش من لاعقات القضيب. لم يظهر مثله قط بين طالبات صفّه الشابات.

***

حالما رأيتُ كونسويلا كاستيللو أثارتْ بسلوكها لديّ إعجاباً هائلاً. كانت تعرف قيمة جسدها، وتعرف نفسها. كانت تعرف أيضاً أنّها لا تتلاءم مع عالم الثقافة الذي أعيشُ فيه -كانت الثقافة تُبهرها ولكن ليس كشيءٍ يحيا المرء به. وانضمَّتْ إلى الحفلة- كنتُ قبل ذلك قد شعرت بالقلق من ألّا تأتي -وانبسطتْ معي هناك للمرّة الأولى. ولمّا لم أتيقّن من مدى رصانتها وحذرها، حرصتُ على ألّا أُظهِر أي اهتمام خاصّ بها في أثناء الاجتماع في قاعة الدرس أو خلال المناسبتين اللتين التقينا بهما في غرفة مكتبي لكي أراجع أوراقها. وخلال تلك اللقاءات الخاصّة، كانت فقط مكبوتة وتتصرَّف باحترام، وتُدوِّن كل كلمة أنطقها، مهما كانت تافهة. وفي غرفة مكتبي كانت تدخل وتخرج وهي ترتدي السترة المُفصّلة فوق بلوزتها. وفي المرة الأولى التي أتت لكي تقابلني- وجلسنا خلالها جنباً إلى جنب على مقعد الدرس، كما ينبغي، والباب مفتوح على مصراعيه على الرواق العام، وأطرافنا الثمانية، وجذعانا المتباينان ظاهران لكل مُتلصِّص مارّ (والنافذة مفتوحة أيضًا، فتحتها بنفسي، واسعاً، خوفاً من تأثير عِطرها) -كانت المرّة الأولى التي ترتدي فيها بنطلوناً رماديّاً أنيقاً ذا طيّة في أسفله من الفانيلا، وفي المرة الثانية، ارتدتْ تنورة سوداء من الصوف، وبنطلوناً أسود ضيّقاً، لكنها كما تفعل ونحن في غرفة الدرس، كانت دائماً ترتدي البلوزة، بلوزة من الحرير بلون أحد تدرّجات الكريم محلولة الأزرار حتى الزر الثالث إلى الأسفل

على بشرتها الناصعة البياض. أما في الحفلة فخلعت السترة بعد شرب كأس واحدة من النبيذ وكانت تبتسم لي بوقاحة وهي بلا سترة، ابتسامة صريحة غاوية. كان يفصل بيننا بضع بوصات ونحن في غرفة مكتبي أُريها مخطوطاً لكافكا من ممتلكاتي- ثلاث صفحات مكتوبة بخط يد كافكا، هي خطاب ألقاه في حفلٍ أُقيم بمناسبة تقاعد رئيس مكتب الضمان حيث كان يعمل، وهذا المخطوط الذي يعود تاريخه إلى عام 1910 هو هديّة من امرأة ثريّة متزوّجة في الثلاثين من العمر كانت قبل ذلك ببضع سنوات طالبة – وعشيقة.

كانت كونسويلا تتكلَّم بحماس حول كل شيء، وفرحتْ كثيراً لأنّني سمحتُ لها بحمل مخطوط كافكا، وهكذا كان كل شيء يظهر دفعة واحدة، الأسئلة التي أعدَّتها حول كامل الحلقة الدراسيّة بينما كنتُ أضمرُ سرّاً شوقي إليها. «ما نوع الموسيقى التي تستمع إليها؟ أحقاً تعزف على البيانو؟ هل تقرأ طوال اليوم؟ هل تحفظ كل الأشعار التي تضمّها رفوف مكتبتك عن ظهر قلب؟». من كل سؤال تجلّى مدى تعجّبها –حسب تعبيرها- من أسلوب حياتي، حياتي الثقافيّة الهادئة، المتماسكة. وسألتُها عن عملها، عن حياتها، فأخبرتني بأنها بعد أنْ أنهت الدراسة في المرحلة الثانوية لم تلتحق بالجامعة على الفور – قرَّرتْ أنْ تُصبح سكرتيرة خاصّة. وهذا لاحظته على الفور: السكرتيرة الخاصّة المُخلصة، كنز المكتب بالنسبة إلى رجل ذي سلطة، رئيس مصرف أو مكتب مُحاماة. كانت في الحقيقة تنتمي إلى حقبة ماضية، إلى زمن أكثر دماثة، وخمَّنتُ أنَّ أسلوبها في التفكير في نفسها، يشبه أسلوبها في انسجامها مع نفسها، أي له صِلة وثيقة بكونها ابنة مُهاجرين أثرياء من كوبا، قوم أغنياء فرّوا من أتون الثورة.

أخبرتني «لم أحبّ عملي كسكرتيرة. جرَّبته على مدى عامين، لكنّه كان مجالاً مُملاً، ولطالما أراد والداي وتوقّعا مني أنْ ألتحق بالجامعة. وأخيراً قرّرتُ أنْ أدرس بدل ذلك العمل. وأعتقد أنني حاولتُ أنْ أكون متمرّدة، لكنَّ ذلك كان تصرّفاً صِبيانيّاً وهكذا سجلتُ هنا. لقد أثارت الفنون إعجابي». من جديد استخدمتْ كلمة «إعجاب» بحريّة وبصدق. سألتها «نعم، ماذا تفضلين؟»، «المسرح. بأنواعه كافّة. وأشاهد عروض الأوبرا. وأبي يُحبّ الأوبرا ونحن نرتاد معاً مسرح مِتْ. وبوتشيني هو مؤلّفه المُفضَّل. لطالما

أحببتُ مرافقته»، «أنتِ تُحبّين والديك»، قالتْ «حباً جمّاً»، «أخبريني عنهما»، «حسن، هما من كوبا. وفخوران بهذا. وأحرزا نجاحاً باهراً هنا. والكوبيّون الذين جاؤوا إلى هنا بسبب الثورة كان لديهم أسلوب خاص في النظر إلى العالم بحيث إنهم جميعاً حقّقوا نجاحاً ساحقاً. والمجموعة الأولى، على غرار عائلتي، عملتْ باجتهاد، وقامت بكل الأعمال التي احتاجت إلى القيام بها، وحقّقت النجاح إلى درجة أنَّ بعضهم، كما أخبرني جدّي، الذين احتاجوا إلى مُساعدة حكوميّة لدى وصولهم، لأنهم لم يكونوا يمتلكون أي شيء –وبعد مرور بضعة أعوام، بدأت الحكومة الأميركيّة تتلقّى من بعضهم، مبالغ لتسديد ديونهم. وقال والدي إنَّ الحكومة لم تعرف ماذا تفعل بها. كانت تلك المرَّة الأولى في تاريخ خزينة الولايات المتحدة التي تتلقّى فيها مبالغ تسديد الديون». سألتها «أنت تحبّين جدّك أيضاً. كيف كان؟»، «كان يُشبه والدي– كان شخصاً راسخاً، وتقليديّاً إلى أقصى مدى، ويتبنّى وجهة نظر العالم القديم، العمل الجادّ والثقافة في المقام الأول، وقبل أي شيء. وعلى غرار والدي، كان رجلاً شديد الاهتمام بعائلته، وشديد التمسّك بالدين، على الرغم من أنّه لم يكن يتردَّد كثيراً على الكنيسة. وكذلك الأمر مع والدي. أما أمي فكانت تتردّد عليها. وكذلك جدَّتي. كانت جدَّتي تتلو الصلوات بالسبحة في كل ليلة، وكان الناس يُهدونها سبحات. كانت لديها مجموعتها المُفضّلة. كانت تحب سبحتها»، «هل ترددين على الكنيسة؟»، «نعم كنتُ كذلك وأنا صغيرة. أما الآن، فلا. إنَّ عائلتي متكيّفة. وقد اضطرَّ ذلك الجيل من الكوبيين إلى التكيُّف، بدرجةٍ ما. كانت عائلتي تريد منّا أنْ نتردَّد على الكنيسة، أنا وأخي، لكننا لم نفعل، أنا لم أفعل»، «ما نوع القيود التي تربَّتْ عليها الفتاة الكوبيّة التي تنشأ في أميركا ولا تتماشى مع نمط التنشئة الأميركيّة»، «أوه، لقد مورسَتْ عليّ الكثير من المحظورات في وقت مُبكِّر. كان عليَّ أنْ أعود إلى المنزل في وقت اجتماع أصدقائي كلهم ليبدؤوا قضاء أمسية صيفية. كنتُ أعود إلى المنزل عند الساعة الثامنة في الليلة الصيفيّة وأنا في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة. لكنَّ والدي لم يكن شخصاً مُخيفاً جداً. كان أباً عاديّاً ظريفاً من نمطك. ولكن لم يكن يُسمَح لأي صبي أنْ يدخل غرفتي. في المُطلَق. فيما عدا ذلك، عندما

وصلتُ سن السادسة عشرة، صُرتُ أُعامَل كما يُعامل أصدقائي، بفرض المحظورات وما إلى ذلك»، «ومتى جاءت والدتك ووالدك إلى هنا؟»، «في عام 1960. كان فيديل لا يزال حينئذٍ يسمح للناس بالرحيل. كانا قد تزوّجا في كوبا. في أول الأمر ذهبا إلى المكسيك، ثم جاءا إلى هنا. وطبعاً وُلِدتُ أنا هنا»، «هل تعتبرين نفسك أميركيّة؟»، «لقد وُلِدتُ هنا، ولكن، كلا، أنا كوبيّة. بكل معنى الكلمة»، «أنا مُندهش، يا كونسويلا. من صوتك، من سلوكك، ومن طريقتك في نطق عبارة «ما إلى ذلك» وكلمة «رجل». أنتِ أميركيّة قلباً وقالباً بالنسبة إليّ. لِمَ تعتبرين نفسك كوبيّة»، «لأنني نشأتُ في عائلة كوبيّة. هذا هو السبب. هذه هي القصّة كلها. إنّ أفرادَ عائلتي يتَّصِفون بهذه الكبرياء الخارقة. إنهم ببساطة يُحبّون بلدهم. من أعماق قلوبهم. إنّه في دمهم. هكذا كانوا في كوبا»، «ماذا يُحبّون في كوبا؟»، «أوه، إنها ممتعة جداً. إنها مجتمع من شعب لديه أفضل الأشياء في العالم. إنها عالميّة بالكامل، خاصّة إذا كنتَ تُقيم في هافانا. وهي جميلة. كانوا يُقيمون حفلات كبيرة، ويقضون أوقاتاً ممتعة»، «حفلات؟ أخبريني عن الحفلات»، «لديّ صور لأمي في عروض الأزياء. بعد أنْ بلغتْ سن الرشد. وهناك صور لها وهي في حفلات خروجها إلى المجتمع»، «في أي مجال كانت عائلتها تعمل»، «في الواقع إنها قصّة طويلة»، «أخبريني»، «حسن، قد أُرسِلَ أول إسبانيّ من جانب جدَّتي إلى هناك بوصفه جنرالاً. كانت هناك الكثير من النقود الإسبانيّة القديمة. كانت جدَّتي تتلقى دروساً من مُعلّمين خصوصيين يحضرون إلى المنزل، وذهبتْ إلى باريس وهي في سن الثامنة عشرة لكي تشتري أثواباً. كان هناك أفراد من عائلتي يحملون ألقاباً، من كلا الطرفين. بعضها ألقاب عتيقة جداً، جداً. على سبيل المثال كانت جدّتي تُلقَّب بالدوقة – في إسبانيا»، «أأنتِ أيضاً دوقة، يا كونسويلا؟»، قالت، وهي تبتسم، «كلا، أنا مجرّد فتاة كوبيّة محظوظة»، «حسن، أنتِ مؤهّلة لتكوني دوقة. لابد أنّ هناك دوقة تشبهك تُعلّق صورتها على جدران معرض برادو. أتعرفين اللوحة الشهيرة لفيلاسكيز، «*وصيفات الشرف*»؟ على الرغم من أنَّ الأميرة الصغيرة فيها حسناء، شقراء»، «لا أعتقد ذلك»، «إنها في مدريد. في معرض برادو. سوف أُريك إياها»

هبطنا الدَرَج اللولبيّ الفولاذيّ إلى المكتبة المُكدّسة بالكتب، وعثرتُ

على كتاب كبير يضم صوراً للوحات فيلاسكيز، وجلسنا جنباً إلى جنب وأخذنا نُقلِّب الصفحات على مدى خمس عشرة دقيقة، ربع ساعة مُثيرة تعلَّمنا معاً خلالها شيئاً - تعلَّمتْ هي، للمرة الأولى، شيئاً عن فيلاسكيز وتعلَّمتُ أنا، من جديد، شيئاً عن الحماقة المُبهجة للشهوة. وكم تكلّمنا! أريتها كافكا، وفيلاسكيز... لِمَ يفعل المرء هذا! حسن، يجب أنْ يفعلَ شيئاً. هناك حُجُب الرقص. فلا تخلط هذا بالغواية. هذا ليس غواية. إنَّ ما تخفيه أنتَ هو الشيء الذي يوصلك إلى ما تريد، إلى الشهوة الخالصة. والحُجُب تحجب الدرب المسدود. عندما تتكلَّم هكذا يتكوَّنُ لديك حسّ مُضلِّل، كما تفعل هي، بأنكَ تعرف ما تتعامل معه. لكنَّ الأمر لا يُشبه إجراء حديث مع مُحامٍ أو الاستعانة بطبيب أو أنَّ ما قيل على طول الطريق سوف يُغيِّر مسار الأحداث. أنت تعلم ما تريد وتعلم أنكَ سوف تمارس الشهوة وأنَّ لا شيء يستطيع أنْ يمنعك. لا شيء سوف يُقال هنا ويُغيِّر أيّ شيء.

إنَّ النكتة البيولوجيّة الكبرى عن الناس هي أنكَ سرعان ما تتآلف مع الشخص الآخر قبل أنْ تعرف أي شيء عنه. في اللحظة الأولى تفهم كل شيء، أولاً ينجذب كلٌ منكما إلى الآخر سطحيّاً، لكنّكَ أيضاً تحدس البُعد الأرحب. وليس ضروريّاً أنْ يكون الانجذاب متساوياً: هي تنجذب إلى شيء، وأنت تنجذب إلى آخر. إنّه السطح، إنّه الفضول، ولكن بعد ذلك، بووم، تنفجر الأبعاد. شيء جميل أنْ تكون من كوبا، وشيء جميل أنَّ جدَّتها كانت هذا وجدَّها كان ذاك، جميلٌ أنني أعزف على آلة البيانو وأنني أمتلك مخطوطاً لكافكا، لكنَّ هذا كلّه ليس أكثر من حركة التفاف حول الطريق المؤدية إلى حيث نتوجّه. أعتقد أنّه جزء من السِحر لكنّه الجزء الذي إذا لم يكن لديّ أيّ قدرٍ منه، فسوف أكون في حال أفضل بكثير. إنَّ الجنس هو كل السِحر المطلوب. هل يجد الرجالُ النساءَ شديدات الجاذبيّة بعد استثناء الجنس؟ هل يجد أيُ شخص أيَّ شخص آخر من أي جنس كان شديد الجاذبيّة من دون أنْ يُمارسا الجنس؟ إلى أي شخص آخر تنجذِب بقوة؟ لا أحد.

تقول في نفسها، إنني أخبره عن شخصي، لأنّه مُهتمّ بي. وهذا صحيح، لكنني فضوليّ لأعرفها لأنني أريد أنْ أضاجعها. لستُ في حاجة إلى كل ذلك الاهتمام الشديد بكافكا وفيلاسكيز. بعد إجراء ذلك الحديث معها

أفكّر، إلى متى يجب أنْ أستمرّ؟ ثلاث ساعات؟ أربعاً؟ هل سأستمر حتى ثماني ساعات؟ إنني لم أستمرّ في الاحتجاب أكثر من عشرين دقيقة وها أنا أتساءل، ما صِلة أيّ شيء من هذا بحلمتيها وبشرتها وكيف تتعامل مع نفسها؟ إنَّ الفن الفرنسيّ في الغزل لا يهمّني. أما الحافز الحيواني فيهمّني. كلا، هذا ليس إغواء. هذه مهزلة. مهزلة إيجاد صِلة ليست صِلة - لا يمكن لهذا أنْ يُنافِس إقامة صِلة- إيجادها بلا تصنُّع عبر الشهوة. هذه هي الاصطلاحيّة الفوريّة، هي إعطاؤنا في الحال شيئاً مُشترَكاً بيننا، ومُحاولة تحويل الشبق إلى شيءٍ لائق اجتماعيّاً. ومع ذلك فإنَّ انعدام اللياقة الراديكاليّ هو الذي يجعل من الشبقِ *شَبَقاً*. كلا، إنَّ هذا يُحدِّد فقط المسار، ليس إلى الأمام بل إلى الخلف نحو المسار الأوّليّ. لا تخلط بين الحجب والعمل الذي تقوم به الآن. طبعاً، يمكن أنْ يحدث شيء آخر، لكنَّ ذلك الشيء لا صِلة له بشراء ستائر وأغطية الأسرّة والانضمام إلى فريقٍ ثوريّ. يمكن للنظام الثوريّ أنْ يستمرّ من دوني. أنا أريد أنْ أضاجع هذه الفتاة، ونعم، سوف أُضطرّ إلى تحمُّل نوع من الاستتار، لكنّه وسيلة لوضع نهاية. كم من هذا يُعتبَر مكراً؟ أحبّ أنْ أعتقد أنَّ كلّه هكذا.

سألتها «هلّا ذهبنا معاً إلى المسرح ذات يوم؟»، فقالت «أوه، أحبّ ذلك»، ولم أعلم حينئذٍ إنْ كانت وحدها أم أنّ لديها صديقاً، لكنّني لم آبه، وبعد مرور يومين أو ثلاثة -حدث ذلك قبل ثمانية أعوام، في عام 1992- كتبت رسالة قصيرة تقول فيها: أمرٌ عظيم أنْ أُدعى إلى الحفلة، وأنْ أشاهد شقّتك الرائعة، ومكتبتك المُذهلة، وأنْ أحمل بيديّ ما كتبه فرانتز كافكا بخط يده. لقد تكرَّمتَ عليّ بتعريفي بدييغو فيلاسكيز...»، ودوّنت رقم هاتفها إلى جانب عنوانها، وهكذا اتّصلتُ بها وعرضتُ عليها الخروج لقضاء أمسية في الخارج. لِمَ لا تخرجين معي لنرتاد المسرح؟ أنتِ تعرفين طبيعة عملي. يجب أنْ أرتاد المسرح في كل أسبوع تقريباً. هناك دائماً بطاقتا دخول في حوزتي، وربما ترغبين في مرافقتي»

وهكذا تناولنا وجبة العشاء في المدينة، وذهبنا لنشاهد المسرحيّة التي لم تكن ممتعة كثيراً، وكنتُ جالساً إلى جوارها، أرمقُ شقّها الجميل وجسمها الجميل. تلك الدوقة كان لديها ثديان كبيران، كبيران حقاً، وجميلان، وبشرة

ناصعة البياض، بشرة حالما تراها تدفعك إلى الرغبة في لعقها. وفي المسرح، في الظلام، كانت إمكانيّة بقائها ساكنة هائلة. أي شيء يمكن أنْ يكون أشدّ إثارة للشهوة في تلك الوضعيّة من الغياب الظاهريّ في المرأة المُثيرة لأيّة شهوة جنسيّة مُبيَّتة؟

بعد انتهاء المسرحيّة قلتُ إنَّ في استطاعتنا أنْ نذهب لنتناول مشروباً، ولكن هناك أمراً مُزعجاً واحداً. قالتْ، «إنَّ الناس يعرفونني بسبب ظهوري على شاشة التلفزيون، وأينما نذهب، سواء إلى مطعم ألغونكوين، أم كارلايل، إلى أي مكان، قد يتدخلون في إحساسنا بالخصوصيّة. لقد انتبهتُ إلى أنَّ الناس بدأوا يُلاحظون وجودنا، في المطعم وفي المسرح»، سألتها «أتمانعين في ذلك»، «لا أدري إنْ كنتُ أمانع. أنا فقط انتبهتُ إلى ذلك. وتساءلتُ إنْ كنتَ *أنتَ* تُمانع»، قلتُ «ليس في وسعنا أنْ نفعل أي شيء. إنها ضريبة العمل»، قالت «أعتقد أنهم يعتقدون أنني أحبّ أنْ أرافق المُعجبين»، طمأنتُها، «إنكِ حتماً لا تُحبّين مرافقة المُعجبين»، «لكنني متيقّنة من أنَّ هذا ما يعتقدون. ويقولون «ها هو ديفيد كيبيش مع رفيقته الصغيرة». إنهم يعتقدون أنني فتاة سخيفة متهتكة». سألتها «وما أهميّة اعتقادهم هذا؟»، «لا أعلم إنْ كان هذا يُعجبني كثيراً. أريد أنْ أتخرَّج من الجامعة قبل أنْ يكتشف أبواي أنَّ ابنتهما تظهر على الصفحة السادسة[1] من صحيفة الـ «**بوست**»، «لا أعتقد أنَّ صورتك سوف تظهر على الصفحة السادسة. لن يحدث هذا»، قالت «آمل هذا حقاً»، قلت «اسمعي، إنْ كان هذا ما يُزعجك، يمكننا أنْ نطوِّق المشكلة بذهابنا إلى منزلي. نستطيع أنْ نلجأ إلى شقّتي ونتناول المشروب هناك»، قالت «حسن»، ولكن فقط بعد مرور لحظة من التفكير الهادئ، الجادّ، «لعلّها فكرة أفضل». ليس فكرةً جيّدة، بل فقط فكرة أفضل.

ذهبنا إلى شقّتي وطلبتْ مني أنْ نستمع إلى بعض الموسيقى. في العموم أدرتُ لها موسيقى كلاسيكيّة ناعمة. ثلاثيّة هايدن، ومقطوعة «***تقْدِمة موسيقيّة***»[2]، وحركة قويّة من إحدى سيمفونيات بيتهوفن، وحركات هادئة

1- أي صفحة أخبار الفضائح وأخبار المشاهير. - المترجم

2- ليوهان سيباستيان باخ.

من أحد أعمال برامز. وأعجبتها بوجه خاص سيمفونيّة بيتهوفن السابعة، وفي أمسيات تالية كانت أحياناً تستسلم لإلحاح لا يُقاوَم بالوقوف وتحريك ذراعيها بمرح في الهواء، كأنما هي التي تقود الأوركسترا وليس بيتهوفن. كانت مُراقبة ثدييها يهتزّان من تحت بلوزتها وهي تتظاهر، كطفلة تمثّل، بقيادة الأوركسترا بعصاها غير المرئيّة، شيئاً مُثيراً بقوة، ومع ذلك، ربما لم يكن هناك أي شيء طفوليّ في ذلك وسبب قيامها به هو أنْ تُثيرني بحركات قيادة الأوركسترا الساحرة. لأنها سرعان ما كانت ستفهم أنّ الاستمرار في الاعتقاد، بوصفها طالبة شابة، أنَّ فكرة أنَّ الأستاذ العجوز هو الذي يقود الأمر لا تنسجم مع الحقائق. لأنه في العلاقة الجنسيّة لا معنى للركود التامّ. ليست هناك مُساواة جنسيّة ولا يمكن أنْ تكون هناك مُساواة جنسيّة، وحتماً ليس مُساواة في الحصص، ليس التوازن المثالي بين حصّة الذكر وحصّة الأنثى. لا سبيل إلى مناقشة هذا الشيء العنيف بشكلٍ متوازن. الأمر ليس قسمة متعادلة كصفقة تجاريّة. نحن نتحدث عن فوضى الحب، عن الفوضى الراديكاليّة التي هي إثارتها. في الحب يعود المرء إلى الغابة. يعود إلى المستنقع. إنَّ واقع الحال هو هيمنة الصِلة المُتبادلة، ***انعدام التوازن*** الدائم. هل ستستبعد الهيمنة؟ هل ستستبعد الاستسلام؟ إنَّ الهيمنة كحجر الصوّان، تقدح شرراً، تُطلِقه. ثم ماذا؟ أصغ. وسوف ترى. سوف ترى إلى ماذا تؤدي الهيمنة. سوف ترى إلى ماذا يؤدي الاستسلام.

أحياناً، كما حدث في تلك الليلة، كنتُ أضعُ لها الرباعيّة الوتريّة لدفورجاك –موسيقى مُثيرة، من السهل تمييزها واستيعابها. كانت تحب أنْ أعزف على البيانو، لأنَّ ذلك يُشيع جواً رومانسيّاً، وغاوياً، تحبّه، وكذلك أحببتُه أنا. استهلالات شوبان الأشد بساطة. وبعض «***اللحظات الموسيقيّة***» لشوبرت. وبعض الحركات من السوناتات. لم أعزف أي شيء شديد الصعوبة، بل مقطوعات كنتُ قد تعلّمتها وكان عزفي لها لا بأس به. في المعتاد لا أعزف إلّا لنفسي، وحتى الآن بعد أنْ تحسّن عزفي لها، ولكن كان شيئاً ممتعاً أن أعزفها من أجلها. كان كل ذلك يُشكّل جزءاً من الثمالة– لكلينا. إنَّ عزف الموسيقى شيء ممتع جداً. وبعض الأشياء تستحضرني الآن، لكنَّ معظم المقطوعات ما زال فيها جزء يُسبِّب لي الاضطراب،

فقرات لم أزعج نفسي بتحليلها طوال تلك السنين وأنا أعزفها وحدي ولم يكن لديّ مُعلّمة. حينئذٍ واجهتُ مشكلة، وخرجتُ بفكرة مجنونة لحلها. أو لم أحلّها -هناك أنماط معيَّنة من الانتقال، حركة من أحد أجزاء لوحة المفاتيح إلى آخر بطريقة مُعقّدة، أشبه بكسر الإصبع. وعندما تعرَّفتُ على كونسويلا لم أكنْ قد حصلتُ على مُعلِّمة موسيقى، لذلك ارتكبتُ كل تلك الأشياء الحمقاء المُرتجلة التي اخترعتها كحلول للمشاكل التقنيّة. ولم أتلقّ إلّا حفنة من الدروس وأنا طفل، وإلى أنْ حصلتُ على مُعلّمة بعد ذلك بخمسة أعوام، كنتُ في الغالب أُعلِّم نفسي بنفسي. لم أتدرَّب إلّا قليلاً. ولو أنني تلقَّيت دروساً جديّة، لبدّدتُ وقتاً أقلّ في التدرّب مما أفعل اليوم. كنتُ أستيقظ باكراً وأقضي ساعتين، أو ساعتين ونصف الساعة إنْ استطعت عند الفجر لأتمرّن، وهذا أقصى ما يستطيع المرء أنْ يفعل. على الرغم من أنني في بعض الأيام وأنا أعمل على شيء، كنتُ أقوم بجلسة أخرى لاحقاً. وأُصبحُ في حال جيدة، لكنّ التعب ينال مني بعد فترة. ذهنيّاً وجسديّاً. لقد قرأتُ كمّاً هائلاً من الموسيقى، حسب التعبير التقنيّ- هذا لا يعني التعامُل معها كما تتعامل مع كتاب، بل يعني عزفها على آلة البيانو. وقد اشتريت الكثير من المقطوعات الموسيقيّة، وكان لديّ كل شيء عن مقطوعات على آلة البيانو، وكنتُ أقرأها وكنتُ أعزفُها، بطريقة رديئة. ربما بعض الفقرات لم تكن شديدة الرداءة، لكي أتعلَّم العزف عليها وما إلى ذلك. لم يكن عزفي جيداً، لكنني كنتُ أستمدّ بعض الاستمتاع. والاستمتاع هو موضوعنا. كيف تكون جديّاً على امتداد العمر بشأن مسرّاتك الخاصّة، المتواضعة.

كانت الدروس هديّة قدَّمتُها إلى نفسي في عيد مولدي الخامس والستين لأنني نسيتُ أخيراً كونسويلا. وقد أحرزتُ الكثير من التقدُّم. عزفتُ مقطوعات صعبة جداً. مقطوعة إنترمتزو لبرامز. وشومان. ومقطوعة بريلود صعبة لشوبان. وعزفتُ جزءاً صغيراً من مقطوعة شديدة الصعوبة، ومع ذلك ما زلتُ لا أُحسن عزفها، لكنني أعمل عليها. وعندما قلتُ للمعلّمة بسخط، «إنني لا أُحسنُ عزفها. كيف تحلّ هذه المُعضلة؟»، قالتِ المُعلِّمة «اعزفها ألف مرّة». كما ترى، وككل الأشياء الممتعة، هناك جانب غير ممتع في

الأمر، لكنَّ صِلتي بالموسيقى تعمَّقَتْ وهذا شيء أساسي في حياتي الآن. من الحِكمة فعل ذلك الآن. إلى كم من الوقت سوف تتوفّر الفتيات؟

لا أستطيع القول إنَّ عزفي الموسيقى أثار إعجاب كونسويلا بي كما أثارت قيادتها عزف موسيقى بيتهوفن بشكلٍ هزلي إعجابي بها. وما زلتُ لا أستطيع أنْ أقول إنَّ أيّ شيء فعلته جنسيّاً أثار إعجاب كونسويلا بي. وهذا إلى حدٍ بعيد هو السبب، بدءاً بالأمسية التي تضاجعنا فيها للمرة الأولى قبل ثمانية أعوام، في أنني لم أحظَ بلحظة سلام واحدة، وفي أنني، سواء علِمت ذلك أم لم أعلم، أصبحتُ منذ ذلك الحين شديد الوهن والقلق، وفي أنني لم أدرك قط ما إذا كان الجواب هو أنْ أجتمع بها أكثر أو أقلّ أو ألّا أجتمع بها البتّة، أو أنْ أتخلّى عنها تماماً -أنْ أفعل الأمر المستحيل وأهجر طوعاً، وأنا في الثانية والستين، فتاةً رائعة في الرابعة والعشرين قالت لي مرّات عديدة، «أنا مُتيَّمة بك»، ولكنّها لم تتمكن من دفع نفسها، حتى بالكذب، أنْ تقول لي همساً، «إنني أشتهيك، وأرغبُ فيك بشدّة- ولا أستطيع أنْ أعيش من دون قضيبك»

لم تكن تلك كونسويلا. ومع ذلك لهذا السبب لم يُفارقني الخوف من فقدانها لمصلحة شخص آخر، لماذا كانت دائماً تسكن تفكيري، لماذا لم أثق بها قط سواء كانت معي أم بعيدة عني. كان هوسي بهذا الأمر شيئاً فظيعاً. عندما تُخدَع يُساعدك ذلك على الابتعاد عن الاستغراق في التفكير والاكتفاء بجعل نفسك تستمتع بالخداع. لكنني لم أستمتع البتّة: كل ما فعلتُ هو التفكير - التفكير، والقلق، وأيضاً، نعم، المُعاناة. وقلت لنفسي، ركِّز على استمتاعك. لِمَ لمْ أختر أنْ أعيش إلّا من أجل المتعة، فارضاً على استقلالي أقلّ قدر ممكن من القيود؟ لقد تزوجتُ مرَّة واحدة، في عشرينيات عمري تزوجتُ الزيجة السيئة التي يمرّ بها العديد من الناس، الزواج السيئ الذي يُعادل في سوئه معسكر تدريب جنود البحريّة، ولكن بعد ذلك صمّمتُ على ألّا أمرّ بتجربة الزواج السيئ الثاني أو الثالث أو الرابع. وبعد ذلك، صمّمتُ على ألّا أعيش من جديد داخل قفص.

***

في الليلة الأولى تلك كنا جالسين على الأريكة نستمع إلى موسيقى

دفورجاك، وعند نقطة معيَّنة عثرتْ كونسويلا على كتاب أثار اهتمامها – نسيتُ ما هو، على الرغم من أنني لن أنسى تلك اللحظة. استدارت– كنتُ أجلسُ حيث تجلس أنت، في ركن الأريكة، وكانت هي جالسة هناك – والتفّت بجذعها مقدار نصف دورة، وبدأتْ تقرأ من الكتاب المُستقرّ على ذراع الأريكة، وبسبب الميل، والانثناء إلى الأمام، رأيتُ كفليها من تحت ملابسها، رأيتُ بوضوح الشكل الذي كان بمنزلة غواية هائلة. إنها شابة ممشوقة القامة بجسمٍ شديد الضيق قليلاً. كأنّ الجسم غير متناسق تماماً. ليس لأنها شديدة البدانة، لكنّها ليستْ حتماً من النمط الفاقد للشهيّة إلى الطعام. إنكَ تدرك أنّه لحم أنثى، وهو لحم جيّد، وافر– ولهذا ***السبب*** تراه. إذن ها هي، ليست مُستلقية صراحة على الأريكة بل يستدير كفلاها، مع ذلك، نصف استدارة نحوي. واستنتجتُ أنَّ امرأة تعي جسدها كما تفعل كونسويلا إنما تدعوني إلى البدء. ما زالت الغريزة الجنسيّة سليمة – لم يتدخّل فيها أي شيء من السلوك الكوبيّ القويم. في تلك المؤخّرة نصف المُستديرة أرى أنَّ لا شيء يقفُ عائقاً في طريق الشيء النقيّ. ولم يتدخّل فيه شيء من كل ما تحدّثنا حوله، وكل ما اضطررتُ إلى الإصغاء إليه عن عائلتها. كانت تعلم كيف تُدير مؤخّرتها على الرغم من كل ذلك. تُديرها بالطريقة البدائيّة. الاستعراضيّة. وكان العرضُ مثاليّاً. أخبرني أنني لم أعُد في حاجة إلى كبح الرغبة في اللمس.

باشرتُ بمُداعبة مؤخرتها، وأحبّتْ ذلك. قالت، «هذا وضع غريب. لا أستطيع أبداً أنْ أكون فتاتك. لكل الأسباب الممكنة. أنت تعيش في عالم مختلف». ضحكتُ. «مختلف؟ كيف؟»، وطبعاً، في الحال يبدأ المرء بالكذب، ويقول «أوه، إنّه ليس مكاناً رفيع المقام، إنْ كان هذا ما تتخيّل. ليس عالماً رائعاً. بل إنّه ليس عالماً. إنني أظهر على شاشة التلفزيون مرّة في الأسبوع. وأتحدث عبر أثير الإذاعة مرَّة في الأسبوع. وأظهر مرَّة كل بضعة أسابيع على الصفحات الخلفيّة من مجلّة يقرأها عشرون مليون شخص في الغالب. برنامجي؟ إنّه برنامج صباح يوم الأحد الثقافيّ. لا أحد يُشاهده. إنّه عالم يُثير القلق. أستطيع أنْ أدخِلك بسهولة شديدة إلى ذلك العالم. أرجوكِ امكثي معي»

بدا أنها تفكِّر فيما قلتُ، ولكنْ أيّ نوع من التفكير؟ قالت، «حسنٌ، يكفي هذا حاليّاً. في هذه الليلة. ولكن لا يمكن أنْ أصبح زوجتك». قلت «اتّفقنا»، لكنني قلتُ في نفسي، مَنْ طلبَ منها أنْ تُصبح زوجتي؟ مَنْ طرح هذا السؤال؟ أنا في الثانية والستين من العمر وهي في الرابعة والعشرين. إنّ كل ما فعلتُ هو أنني لمستُ مؤخّرتها وهي تقول إنها لا تستطيع أنْ تُصبح زوجتي؟ لم أكنْ أعلم أنّه ما زال هناك هذا النوع من الفتيات. بل إنها تقليديّة أكثر مما تخيّلت. أو ربما أشدّ غرابة في أطوارها، وأشدّ نُدرة مما تخيّلت. واكتشفتُ أنَّ كونسويلا عاديّة ولكن لا يمكن التكهّن بتصرفاتها. لا شيء في سلوكها آليّ. إنها في وقتٍ واحد واضحة ومُبهمة، ومُفعمة بالمفاجآت الصغيرة بصورة غريبة. ولكن، خاصة في البداية، واجهتُ صعوبة في فكّ طلاسمها، وأخطأتُ –أو ربما لم أُخطئ– فعزوتُ ذلك إلى كونها من كوبا. قالتْ لي «أنا أحبّ عالمي الأليف في كوبا. أحبّ الألفة وسط عائلتي، وأستطيع أنْ أقول منذ الآن إنَّ هذا ليس شيئاً تحبّه وترغب فيه. لذلك لا يمكن أبداً أنْ أنتمي حقاً إليك»

هذه الكياسة الساذجة بالإضافة إلى جسمها الرائع كانا بالنسبة إليّ شيئاً مُغرياً بحيث لم أتيقَّنْ حتى في ذلك الوقت، في تلك الليلة الأولى، من أنَّ في استطاعتي أنْ أضاجعها على الرغم من أنّها كانت نسخة أخرى من ميراندا المرحة. كلا، لم تكن كونسويلا دمية. لا يهمّ ماذا كانت تقول – لقد كانت تتمتع بجاذبية طاغية بحيث ليس أنني لم أتمكّن من مُقاومتها فقط بل لم أفهم أيضاً كيف يمكن لأي رجل آخر أنْ يُقاومها، وفي تلك اللحظة، وأنا أداعب كفليها وهي تشرح كيف أنها لا يمكن أنْ تكون زوجتي، وُلِدَتْ غيرتي.

الغيرة. الشكّ. الخوف من فقدانها، حتى وأنا أمتطيها. هواجسُ لم تكن قد انتابتني قبل ذلك على امتداد تجاربي المتنوعة. ومع كونسويلا أكثر من أيّة فتاة أخرى، كان فقدان الثقة فوريّاً.

وتضاجعنا. حدث ذلك بسرعة، ليس بسبب ثمالتي بل بسبب خلوّها من التعقيد. أو سمِّه الصفاء. سمّه النضج الحديث العهد، على الرغم من كونه، في اعتقادي، نضجاً من النوع البسيط: كانت على صِلة حميمة مع ذلك الجسد بالطريقة نفسها التي تمنّتها ولم تتمكّن من إقامة مثل تلك الصِلة مع

الفن. تعرّتْ، ولم تكن بلوزتها فقط من الحرير بل ملابسها الداخليّة أيضاً كانت مصنوعة من الحرير. كانت ملابسها الداخليّة شبه فاحشة. مفاجأة. أنت تعلم أنّها اختارتها بقصد الغواية. وتعلم أنّها انتقَتْها بعين رجل، حتى وإنْ لم يرها أي رجل. وتعلم أنكَ لا تعرف ما هي، ولا مدى براعتها أو حماقتها، ولا مدى سطحيتها أو عمقها، بل ولا مدى خبثها. إنكَ مع امرأة متحفّظة تتمتّع بطاقة جنسيّة هائلة، لا تعرف شيئاً ولن تعرف أبداً. والدغل الذي هو شخصيتها يطغى عليه جمالها. ومع ذلك، تأثّرتُ أيّما تأثُّر عندما رأيتُ ملابسها الداخليّة تلك. تأثّرتُ برؤية جسدها. قلت «ما أجملك»

هناك شيئان تلاحظهما في جسد كونسويلا. الأول، الثديان. أشد ما رأيتُ من أثداء روعة - وتذكّر أنني وُلِدتُ في عام 1930: وقد شاهدتُ حتى الآن عدداً كبيراً من الأثداء. هذان كانا مُدوّرين، ممتلئين، مثاليين. النوع ذو الحلمة الشبيهة بالطبق. ليس حلمة تشبه الضرع بل حلمة ضخمة ذات لون بُنّي وورديّ شاحب ومُثيرة جداً. والشيء الثاني هو أنَّ لديها شعرَ عانة أملس. في المعتاد يكون مُجعّداً. أما هذا فأشبه بالشعر الآسيويّ. صقيل، وأملس، وخفيف. إنَّ شعر العانة شيء هامّ لأنه يعود إلى النموّ.

نعم، رفعتُ الأغطية ودخلتْ إلى سريري. كونسويلا كاستيللو، الأنثى الخصبة التقليديّة بامتياز لنوعنا من الثدييات. ومنذ تلك المرة الأولى، وهي لم تتجاوز الرابعة والعشرين، رغبتْ في اعتلائي. وحالما فعلتْ ذلك لم تعُد تثِقُ بنفسها، وبقيتْ تُظهِرُ حيويّة فائقة وهي غائبة عن الوعي، تتحرك جيئة وذهاباً وعيناها مُغمضتان، منهمكة في لعبة أطفال خاصّة بها، إلى أنْ ربّتُّ على ذراعها لألفت انتباهها وأجعلها تُبطئ حركتها. كان شيئاً أشبه بقيادتها للأوركسترا بحركات ساخرة. وأعتقد أنها كانت تحاول أنْ تهب نفسها بالكامل، لكنّها كانت صغيرة جداً على فعل ذلك، وعلى الرغم من كل الجهد الذي بذلت، لم تُحقِّق هدفها. ولكن، لأنها كانت تعرف كم أنَّ ثدييها فاتنان وأرادتْ مني أنْ أكون قادراً على أنْ أراهما وهما في أحسن حالتهما، امتطتني عندما طلبتُ منها ذلك. وفعلتْ شيئاً فاسقاً للمرة الأولى، أمام دهشتي من جديد، وبمبادرة خاصة منها - أخذت تعبث بثدييها حول قضيبي. مالتْ إلى الأمام لكي تضع قضيبي بين ثدييها، لكي أتمكّن من رؤيته يستقرّ هناك

وهي تضغطهما معاً بيديها. كانت تعلم كم أنَّ هذا المشهد يُثيرني، وبشرة أحدهما تحتك ببشرة الآخر. وأتذكّر أنني قلت «أتعلمين أنَّ لديك أجمل ثديين رأيتهما في حياتي؟» وبأسلوب سكرتيرة خاصّة، كفؤ، تدوِّن مُذكّرة، أو ربما كابنة كوبيّة حَسَنة التربية، أجابت قائلة، «نعم، أعلم هذا. رأيتُ ردَّة فعلك على ثدييّ»

ولكن في الغالب، في البداية، كانت المُضاجعة مُفعمة بالحيويّة. كانت تبذل أقصى جهدها لكي تُثير إعجاب أستاذها. قلت، اهدئي، ابقي معي. قلّلي من حيويتك، وأكثري من إدراكك. سيطري على الحَدَث برهافة أكثر من هذا. هناك الكثير يُقال لمصلحة النزعة الطبيعيّة الفجّة، ولكن ليس عن بُعد هكذا. عندما رضعَتْه للمرة الأولى، كانت تُحرِّك رأسها بسرعة مُنتظمة لا تهدأ – كان مستحيلاً عليّ ألّا أقذف قبل أنْ أرغب في ذلك، ولكن، حالما بدأتُ أقذف، توقفتْ وبدأتْ تتلقّفه كأنّها مجرور مفتوح. كان يمكن أنْ أقذف داخل سلّة بقايا الأوراق. حتى ذلك الوقت لا أحد كان قد طلبَ منها أنْ تتوقف. لا أحد من عشّاقها الخمسة السابقين جرؤ على أنْ يطلب منها ذلك. كانوا أصغر من أنْ يفعلوا. كانوا في مثل سنّها، ويسعدون بالحصول على ما حصلوا عليه.

ثم حدث أمرٌ. العضّ. والعضّ *المُقابل*. عضّ الحياة *المُقابل*. ذات ليلة تجاوزت كونسويلا حدود كفاءتها المُعتادة، المُهذّبة، المُريحة، تجاوزتْ نطاق الدرس الخصوصيّ إلى منطقة المُغامرة المجهولة، وبدأ بالنسبة إليّ اضطراب العلاقة الغراميّة. هكذا حدث الأمر. ذات ليلة عندما كانت متمددة تحتي على السرير، باسترخاء سلبيّ، في انتظاري لكي أُباعد ما بين ساقيها وأزلقه فيها، وبدل ذلك أقحمتُ وسادتين خلف رأسها، وجعلت رأسها يبرز بتلك الطريقة وأبقيته هكذا بسَنَدِه على لوح الرأس، وثبَّتُ رُكبتيّ على كلا جانبيها وجعلتُ مؤخرتي فوقها، ثم ملتُ نحو وجهها ورحتُ أنكحُ فمها بحركة إيقاعيّة، ومن دون توقّف. في الواقع كنتُ شديد الضجر من ممارسة الاستمناء الآليّ حتى إنني صعقتها بتثبيتها هناك، وجعلتها كذلك بالإمساك بها من شَعرها، وبلفّ خصلة من الشعر بإحدى يديّ حول قبضتي كسَير السوط، كحزام، كالعنان المشدود إلى اللجام.

في الواقع، لا توجد امرأة ترغب في أنْ يُشدّ شعرها. من المؤكّد أنَّ هذا يُثير عدداً منهن جنسيّاً، لكنَّه لا يعني أنّه يُعجبهن. وهو لا يُعجبهنّ لأنّه لا سبيل إلى تجنّب عمليّة الهيمنة الجارية، التي ينبغي أنْ تستمرّ، وتدفعهنّ إلى التفكير. إنها فقط طريقتي في تصوُّر الجنس. إنَّ الجنس بهيميّ حتماً – هذا الرجل ليس بهيمة بل في سبيله إلى البهيميّة. بعد أنْ قذفت، وابتعدتُ، ولم يبدُ على كونسويلا الرعب فقط بل الضراوة أيضاً. نعم، أخيراً حدث شيء لها. وهو لم يعُد مُريحاً جداً بالنسبة إليها. لم تعُد تتدرَّب على السلَّم الموسيقيّ. كانت في داخلها في حالة حركة لا يمكن التحكُّم فيها. كنتُ ما أزال فوقها –أركع فوقها وأقذفُ عليها– كنا نتبادل نظرات باردة، وإذا بها، بعد أنْ ابتلعتْ بصعوبة، تشدّ على أسنانها. فجأة. بقسوة. في وجهي. لم تكن تلك حركة مقصودة. كانت غريزيّة. شدَّتْ على أسنانها باستخدام قوة عضلات المضغ لكي ترفع بعنف فكَّها السفليّ. كأنّها تقول، هذا ما كان يمكن أنْ أفعل، هذا ما أردتُ فعله، وهذا ما لم أفعل.

أخيراً صدر الرد الجوهريّ، القاطع، المُباشَر عن الجمال الكلاسيكيّ الهادئ. وكانت النرجسيّة والنزعة الاستعراضيّة تتحكّمان فيه حتى ذلك الحين، وعلى الرغم من الاستعراض الحيويّ، على الرغم من التهوُّر، كان مُعطّلاً بصورة غريبة. لا أعلم إنْ كانت كونسويلا تتذكر تلك العضّة، تلك العضّة النشطة التي حرّرتها من رقابتها الخاصّة وأدخلتها إلى الحلم الشرير، لكنني لن أنساها أبداً. إنها حقيقة العشق الكاملة. الفتاة الغريزيّة تفجّر ليس فقط حاوية غرورها بل تتحرّر من أسر منزلها الكوبيّ الأليف أيضاً. لقد كانت البداية الحقيقيّة لهيمنتها – الهيمنة التي قدَّمتْها هيمنتي إليها. أنا الذي أوجدَ هيمنتها عليّ.

في الواقع، أعتقد أنَّ كونسويلا أحسّتْ بوجود نسخة يمكن حيازتها لدماثة عائلتها، لذلك الماضي الأرستقراطيّ الذي تعتبره بصورة أو بأخرى أسطوريّاً. رجل مُجرِّب. سلطة ثقافيّة. أستاذها. الآن، معظم الناس يشعرون بالرعب من الفرق الشاسع في السن، لكنّه بالذات الشيء الذي انجذبت كونسويلا إليه. وغرابة السلوك الجنسيّ هو كل ما يلاحظه مُعظَم الناس ويلاحظونه كشيء مُثير للاشمئزاز، كمهزلة مُثيرة للاشمئزاز. لكنَّ سنّي

كانت لها دلالة كبيرة بالنسبة إلى كونسويلا. إنَّ أولئك الفتيات اللواتي يُرافقن الرجال العجائز لا يفعلن ذلك على الرغم من فارق السن -بل ينجذبن إلى السن، يفعلن ذلك *من أجل* السن. لمَ؟ في حالة كونسويلا، لأنَّني أعتقد أنَّ الفرق الشاسع في السن يسمح لها بالاستسلام. إنَّ سنّي ووضعي يمنحانها، منطقيّاً، الإذن بالاستسلام، والاستسلام في السرير ليس إحساساً بغيضاً. ولكن في الوقت نفسه، إنَّ الاستسلام في العلاقة الحميمة إلى رجل أكبر سناً بكثير يُزوِّد هذا النوع من النساء الصغيراتِ بسلطة من النوع الذي لا يمكنها الحصول عليه عبر ارتباطها جنسيّاً برجلٍ أصغر سنّاً. إنها تحصل على مسرّات الاستسلام و*أيضاً* على مسرّات السلطة. فإلى ما يؤدي استسلامُ فتى لقوتها عند مخلوق مرغوب بشكل جليّ؟ أمّا جعل هذا الرجل المُجرِّب يستسلم فقط بفعل قوّة شبابها وجمالها، أنْ تحظى بالاهتمام التامّ، وتُصبح الشغف المُهلِك لرجلٍ لا يمكن الحصول عليه في كل ميدان آخر، أنْ تدخل حياة تُثير إعجابها ويمكن أنْ تقتصر عليها في حالة أخرى- هذه هي القوة، وهي القوة التي تريد. وهذا لا يعني أنّه تمّت مُقايضتها بالهيمنة بالتالي؛ إنها في حالة مُقايضة باستمرار. وهي ليست مُقايضة بقدر ما هي امتزاج. وهنا يكمن منبع ليس هوسي بها فقط بل هوسها بي في المقابل. أو هكذا تخيّلتُ الأمر في ذلك الحين، من أجل فائدتها لي وأنا أحاول أنْ أفهم ما ترمي إليه ولماذا أغوصُ أعمق فأعمق.

مهما عرفتَ، ومهما فكّرتَ، ومهما تآمرتَ وخطّطتَ ودبّرتَ، فلن تعلو على الجنس. إنها لعبة شديدة الخطورة. وما كان يمكن للرجل أنْ يُعاني من ثُلثَي ما لديه من مشاكل لو لم يُغامِر لكي يحصل على مُضاجعة. إنَّ الجنس هو الذي يُشوِّش حياتنا المُنظَّمة بشكلٍ طبيعيّ. أعلم هذا بقدر ما يعلمه أي شخص. وسوف يعود كل آخر تصرّف تافه لكي يسخر مني. اقرأ «*دون جوان*» من تأليف بايرون. ومع ذلك ماذا تفعل إذا كنتَ تبلغ الثانية والستين من العمر وتعتقد أنكَ ما كنتَ لتُطالب بشيء مثاليّ هكذا من جديد؟ ماذا تفعل إذا كنتَ في الثانية والستين والدافع المُلحّ إلى أخذ ما يمكن أخذه في ذروته؟ ماذا تفعل إذا كنتَ في الثانية والستين وتُدرك أنَّ كل تلك الأجزاء الجسديّة غير مرئيّة حتى الآن (الكِلى، والرئات، والأوعية الدمويّة، والشرايين، والدماغ، والأمعاء،

والبروستات، والقلب) توشك أنْ تصبح مرئيّة بصورة مؤلمة، في حين أنَّ العضو الذي كان الأكثر بروزاً طوال حياتك محكوم عليه بالتضاؤل حتى التلاشي؟

لا تُسئ فهمي. الأمر ليس هكذا، فيما يتّصل بكونسويلا، يمكنك أنْ تُضلِّل نفسك وتعتقد أنَّك قمت بالمحاولة الأخيرة في شبابك. إنكَ لا تشعر بالفرق أكثر في فترة الشباب. ففي طاقتها، وفي حماستها، وفي جهلها الشابّ، وفي *معرفتها* الشابة، يتجلّى الفرق بوضوح في كل لحظة. لا شكّ في أنها هي التي تبلغ الرابعة والعشرين من العمر وليس أنت. وسوف تكون أبله إذا شعرتَ بأنكَ عدتَ شاباً. وإذا شعرتَ بأنك شابّ، فذلك يحدث للحظة. وبعيداً عن شعورك بالشباب، سوف تشعر بحِدَّة مستقبلها اللامحدود كنقيضٍ لمستقبلك المحدود، بل سوف تشعر أكثر من المعتاد بحِدَّة كل آخر نعمة ضاعت. الأمر أشبه بلعب مباراة في البيسبول مع أفراد فريق في الرابعة والعشرين من أعمارهم. لن تشعر بأنكَ في العشرين لمجرد أنكَ تلعب معهم. سوف تلاحظ الفرق مع مرور كل لحظة من المباراة. لكنك على الأقلّ لن تجلس مع الاحتياط. إليك ما يحدث: سوف تشعر بمقدار عمرك بصورة مُعذِّبة، ولكن بطريقة جديدة.

***

هل تستطيع أنْ تتخيَّل سن الشيخوخة؟ طبعاً لا تستطيع. أنا لم أتخيّل. لم أستطع. لم تكن لديّ أيّة فكرة عنها. ولا حتى صورة زائفة - أو أيّة صورة. لا أحد يريد أي شيء آخر. لا أحد يريد أنْ يواجه هذا قبل أنْ يُضطر إليه. كيف سيؤول كل شيء؟ إنَّ التبلّد أمرٌ ضروريّ.

من المفهوم أنَّ المرء لا يستطيع أنْ يتخيّل أيّة مرحلة من الحياة أكثر تقدّماً من حياته الخاصّة. أحياناً في أثناء انتقاله إلى المرحلة التالية يُدرك أنّه قد وصل إليها. ومن ثم، تُقدِّم المراحل السابقة تعويضاتها. ومع ذلك، فإنَّ المرحلة الوسطى تُثبط همّة العديد من الأشخاص. ولكن ماذا عن النهاية؟ من المُثير للاهتمام أنها المرة الأولى في الحياة التي تقف خلالها بالكامل خارجها وأنتَ داخلها. عندما يُراقب المرء انحطاطه طوال الوقت (إنْ كان محظوظاً مثلي)، فإنّه يُصبح، بفضل حيويّته المتواصلة، على مسافة كبيرة من

انحطاطه - بل يشعر بسرور بأنّه منفصل عنه. نعم، حتماً، هناك العديد من المؤشرات التي تقود إلى النتيجة البغيضة، وعلى الرغم من ذلك، تقفُ أنت في الخارج. وتكون شراسة الحقيقة الموضوعيّة وحشيّة.

هناك تمييز يجب وضعه بين الاحتضار والموت. ليس كلّه احتضاراً متواصلاً. إنْ كان المرء صحيحاً ويشعر بأنّه على ما يرام، يكون الاحتضار غير ظاهر. إنَّ النهاية التي هي يقين لا يُعلِن الجسدُ عنها بالضرورة. كلا، أنت لا تفهم. الشيء الوحيد الذي تفهمه عن العجائز عندما لا تكون عجوزاً هو أنَّهم موسومون بزمنهم. لكنَّ الفهم هو الذي يُجمّدهم في زمنهم، وهكذا ينتهون إلى عدم فهم أي شيء. وبالنسبة إلى الذين لم يصلوا بعد إلى سن الشيخوخة، فإنَّ الشيخوخة تعني أنكَ *كنتَ موجوداً*. لكنَّ كون المرء عجوزاً يعني أيضاً على الرغم من أنكَ *كنتَ موجوداً*، وبالإضافة إليه، وزيادة عليه، أنت ما زلتَ موجوداً. ووجودك حيويّ بكل معنى الكلمة. أنت ما زلتَ موجوداً، والمرء ممسوس باستمرار بوجوده الكامل كما أنّه ممسوس بأنه كان موجوداً، ممسوس بالماضي. فكِّرْ في الشيخوخة على النحو التالي: إنَّ الحقيقة اليوميّة هي أنَّ حياة الإنسان على المِحكّ. ولا يمكن الفرار من معرفة ما ينتظره قريباً، من الصمت الذي سيكتنفه إلى الأبد. وإلّا فكل شيء سواء، والمرء يبقى خالداً ما دام حيّاً.

قبل سنوات قريبة، كانت هناك طريقة جاهزة لبلوغ سن الشيخوخة، تماماً كما كانت هناك طريقة جاهزة ليكون المرء شاباً. ولم تعد أيٌّ منهما سارية. هنا حلَّ محلّهما قتالٌ ضار حول ما هو مسموح به - وحدث انقلاب هائل. ومع ذلك، هل ينبغي على رجلٍ سبعينيّ أنْ ينغمس في الجانب الجسديّ من الملهاة الإنسانيّة؟ أنْ يكون راهباً عجوزاً لا يزال عُرضة للإثارة الإنسانيّة بلا ندم؟ لم يعُد هذا الوضع كما كان يُرمَز إليه ذات يوم بالغليون وبالكرسي الهزّاز. ربما ما زال الناس يجدون أنَّ من المهين أنْ يفشلوا في التقيّد بإيقاع الزمن الماضي. أنا أُدركُ أنّني لا أستطيع أنْ أعتمد على الاحترام الفاضل للبالغين الآخرين. ولكن ماذا في وسعي أنْ أفعل، حسب تقديري، بشأن حقيقة أنّه لا شيء، **لا شيء** ينبغي أنْ يرتاح، مهما بلغ من سن الشيخوخة؟

***

وراحت تتردّد على منزلي بصورة اعتياديّة جداً بعد تلك العضّة. لم يعد الأمر يقتصر على الخروج في الأمسيات ومن ثم المُضاجعة بعد أنْ أدركتْ أنّه لم يعُد يتطلّب منها الكثير للسيطرة على الأمور. تتّصل هاتفياً وتقول «هل أستطيع أنْ آتي وأقضي بضع ساعات؟» كانت تعلم أنني لن أرفض أبداً، وتعلم أنها في كل مرة عندما تسمعني أقول «ما أجملك» كأنّها هي نفسها لوحة لبيكاسو، فإنَّ كل ما عليها أنْ تفعل هو أنْ تخلع ملابسها وتقف هناك. لقد أعلنتُ، أنا، أستاذها في مادة النقد العمليّ، ومُقدِّم برنامج مبادئ الجمال على أثير محطة خدمة البثّ العام في صباح يوم الأحد، والسلطة الحاكمة لتلفزيون نيويورك على أفضل ما يمكن مُشاهدته، وسماعه، وقراءته -أنها عمل فنيّ عظيم، تتَّصِف بكل التأثير السِحريّ للعمل الفنيّ العظيم. ليس الفنّان بل الفنّ نفسه. لم يكن هناك أي شيء ممنوعة عليها معرفته- يكفي أنْ تكون موجودة، أمام الأنظار، حتى يتدفّق مني فهم أهميتها. لم يكن مطلوباً منها، أكثر مما يُطلَب من كونشيرتو للكمان أو من القمر، أنْ تتَّصِف بنوع من تصوّر ذاتي. وكانت تلك مهمّتي. كنتُ وعيَ كونسويلا لذاتها. كنتُ القطة التي تُراقبُ السمكة الذهبيّة. الفرق هو أنَّ السمكة الذهبيّة هي التي لديها أسنان.

الغيرة. ذلك *السُمّ*. ومن دون استفزاز. أشعر بالغيرة حتى عندما تُخبرني بأنها ذاهبة لكي تتزلج على الثلج مع أخيها البالغ الثامنة عشرة من العمر. هل سيكون هو الذي سيسرقها مني؟ بعد تلك العلاقات الغراميّة المهووسة لا تعود واثقاً من نفسك، لا تكون كذلك وأنتَ وسط دوامة تلك العلاقات ويبلغ عمر الفتاة حوالي ثلث عمرك. وأشعر بالقلق إلى أنْ أتحدث معها عبر الهاتف في كل يوم، ثم أشعر بالقلق بعد انتهاء حديثنا. في الماضي كنتُ أتخلّص على الدوام من النسوة اللائي يحتجن إلى الاتصال هاتفيّاً، ويتكرَّر اتّصالهن هكذا - والآن أصبحتُ أنا الذي يطلب منها الاتّصال: إنّه إصلاح الأمور اليوميّ عبر الهاتف. لماذا أمتدحها عندما نتحدث؟ لِمَ لا أكفّ عن إخبارها أنَّ جمالها مثاليّ؟ لِمَ أشعر دائماً بأنني أقول الشيء الخطأ لهذه الفتاة؟ إنني عاجز عن معرفة ما تعرفه عني، ما تعرف عن أي شيء، واضطرابي يدفعني إلى قول أشياء تبدو خاطئة أو مُبالَغاً فيها في أذني، لذلك

أقطع المكالمة وأنا مُفعم بامتعاض صامت منها. ولكن عندما ينصرم النهار النادر الذي أستطيع فيه أنْ أنضبط بقدر كافٍ بحيث لا أتحدث معها، ولا أتصل بها هاتفيّاً، ولا أمدحها، ولا أبدو زائفاً، ولا أشمئزّ ممّا تفعل معي عن جهل، يُصبح الوضع أسوأ. إنني عاجز عن التوقف عن فعل ما أفعل، وكل ما أفعل يتسبَّب في اضطرابي، ومع ذلك تأتي إليّ بسبب تلك السلطة.

في الليالي التي لا تكون معي، يُشوّهني التساؤل أين هي وما الذي تُخطط له. ولكن حتى بعد أنْ تُمضي معي الأمسية وتغادر إلى المنزل، يُجافيني النوم. إنَّ تجربتي معها قوية جداً. وأجلسُ يقظاً على السرير وفي منتصف الليل وأهتفُ «كونسويلا كاستيللو، دعيني وشأني!» وأقول لنفسي، يكفي هذا. انهضْ عن السرير، وغيِّر الأغطية، وخذ دشّاً من جديد، وتخلَّص من رائحتها، ***ومن ثم تخلَّص منها***. يجب أنْ أفعل. إنَّ الأمر يُصبح معها أشبه بحملة لا تنتهي. أين الإنجاز وحس الامتلاك؟ إذا امتلكتها، فلِمَ لا تمتلكها؟ إنكَ تحصل على ما تريد حتى عندما تحصل على ما تريد. لا سلام في هذا ولا يمكن أنْ يكون، بسبب الاختلاف في عُمرينا والحِدَّة المحتومة. وبسبب الفرق بين عمرينا، أحصل على المتعة لكنني لا أفقد الاشتياق. ألم يحدث هذا من قبل؟ كلا، لقد سبق لي أنْ كنتُ في الثانية والستين من العمر. ولم أعُد في تلك الفترة من حياتي التي أعتقد خلالها أنَّ في استطاعتي أنْ أفعل كل شيء. لكنني أتذكّرها بكل وضوح. إنكَ ترى امرأة جميلة. تراها عن بُعد. فتقترب منها وتقول، «مَنْ أنتِ؟» وتتناولان العشاء معاً. وما إلى ذلك. ***في تلك*** الفترة، الخالية من الهمّ. تركب الحافلة، فترى مخلوقة غاية في الجمال والجميع يخشون الجلوس إلى جوارها، والمقعد المُجاور لأجمل فتاة في العالم - خال. فتجلس عليه. لكنّ الآن ليس حينئذٍ، لن يسود الهدوء، ولن يسود السلام. لقد قلقتُ عليها لأنها تتجوّل مرتدية تلك البلوزة، جرِّدْها من سترتها وسوف تجد البلوزة. وجرِّدْها من البلوزة وسوف تجد الكمال. الشاب سوف يعثر عليها ويأخذها معه بعيداً عني، أنا الذي ألهبَ أحاسيسها، ومنحها اعتبارها، وكان مُحفِّز تحرّرها وأعدَّها لأجله.

كيف أعلم أنَّ شابّاً سوف يأخذها؟ لأنني كنتُ ذات يوم شابّاً يمكن أنْ يفعل ذلك.

وأنا أصغر سناً لم أكن سريع التأثّر. كان الآخرون يغارون في وقت مبكّر، أما أنا فاستطعتُ أنْ أحمي نفسي من ذلك. تركتهم يتّبعون طريقتهم، وأنا واثق من استطاعتي أنْ أتغلّب عبر هيمنتي جنسيّاً. لكنَّ الغيرة، طبعاً، هي باب مسحور يؤدي إلى إبرام عقد. والرجال يستجيبون للغيرة بقولهم، «لن يأخذها أحد غيري. سوف أحصل عليها – وسوف أتزوجها. سوف أختطفها بهذه الطريقة. بالأصول»، والزواج هو لعنة الغيرة. ولهذا السبب يسعى الرجال إليه، ولأنهم ليسوا واثقين من ذلك الشخص الآخر، يدفعونها إلى التوقيع على العقد: *لن أقوم، إلى آخره*.

كيف أختطفُ كونسويلا؟ هذا التساؤل مُهين أخلاقيّاً، لكنّه مطروح. أنا طبعاً لن أربطها بوعد الزواج، ولكن بأيّة طريقة أخرى يمكن أنْ أربط امرأة شابّة وأنا في مثل هذه السن؟ ما هو البديل الذي في إمكاني أنْ أُقدِّمه لها في هذا المُجتمع المُرفّه الذي يُقدِّم علاقات جنسيّة مجّانيّة؟ وهنا يبدأ الفن الإباحيّ. إباحيّة الغيرة. إباحيّة تدمير المرء لذاته. أنا مُنتشٍ، ومفتون، لكنّي مفتون *خارج* الإطار. ما الذي يضعني في الخارج؟ إنّه التقدُّم في السن. جرحُ التقدُّم في السن. والفنّ الإباحيّ بشكله التقليديّ أمامه فترة خمس دقائق أو عشر قبل أنْ يُصبح شبه هزليّ. ولكن في هذا الفن الإباحيّ الصور مؤلمة إلى أقصى مدى. والإباحيّة العاديّة هي تجميل الغيرة. إنها تنزع العذاب. ماذا – لِمَ أقول «تجميل»؟ لِمَ لا أقول «تخدير»؟ حسن، ربما كلاهما. إنَّ الفنّ الإباحيّ العاديّ هو تمثيل، شكلٌ فنيّ هابط. إنه ليسَ مجرد ادّعاء، بل نفاق بيِّن. أنت تريد الفتاة التي في الفيلم الإباحيّ، لكنّك لا تشعر بالغيرة من أي شخص ينكحها لأنه يُصبح بديلاً لك. شيء مُذهل تماماً ولكن هذا هو موطن قوة الفن الهابط. إنَّ الشخص يُصبح بديلاً، وفي خدمتك، يزيل الألم ويُحوّله إلى شيء ممتع. ولأنكَ الشريك الخفيّ في الفعل، فإنَّ الفن الإباحيّ العاديّ يُزيل العذاب بينما فيلمي الإباحي يُبقي على العذاب. في فيلمي الإباحيّ، تتطابقُ ليس مع الشخص الذي أشبع رغبته، بل مع الشخص الذي فقدها، مع الشخص الخاسر.

سوف يعثر عليها أحد الشبّان ويأخذها معه. إنني أراه. وأعرفه. أعرفُ ما يقدر على فعله لأنّه أنا في سن الخامسة والعشرين، وليس لديّ زوجة

وطفل؛ إنّه أنا الغرّ، قبل أنْ أفعل ما يفعله كل شخص آخر. أراه يُراقبُها وهي تجتاز الساحة الفسيحة -تقطع أرض الساحة ***بخُطى واسعة***- عند محطة لينكولن. إنه بعيد عن الأنظار، يقفُ خلف عمود، يُتابعها بعينيه كما فعلتُ أنا في الأمسية التي حضرتُ معها أول حفل موسيقيّ لموسيقى بيتهوفن. إنها تنتعل حذاءً طويل الرقبة، حذاء من الجلد ذا كعب عالٍ بعنق طويل وترتدي ثوباً قصيراً جميلاً، امرأة شابة في العراء في ليلة خريفيّة دافئة، تجوب بلا حياء شوارع العالم كي يشتهيها الكل ويُعجبون بها - وهي تبتسم. إنها سعيدة. هذه المرأة المُدمِّرة آتية لتقابلني. لكنَّ الشخص الذي في الفيلم الإباحي ليس أنا. إنّه هو. هو الذي كان ذات يوم أنا لكنّه لم يعُد كذلك. أراقبه وأراقبها وأعرف بالتفصيل ما الذي سيحدث بعد ذلك، وبمعرفة ما الذي سيحدث تالياً، بتصوّره، تجد من المستحيل أنْ تفكِّر فيما تفسّره عقليّاً بأنّه اهتمام بنفسك. من المستحيل الاعتقاد أنّه ليس الجميع يشعرون بهذه الطريقة تجاه هذه الفتاة لأنّه ليس الجميع مهووس بهذه الفتاة. وبدل ذلك، لا تستطيع أنْ تتصوّرها تذهب إلى أي مكان لا تستطيع أنْ تتصوّرها في الشارع، أو في متجر، أو في حفلة، أو على الشاطئ من دون ذلك الشاب الذي يظهر من بين الظِلال. إنَّ عذاب الفيلم الإباحي هو: مُراقبة شخصٍ آخر كان ذات يوم أنت ويقوم بذلك الفعل.

عندما تخسر في نهاية المطاف فتاة على غرار كونسويلا، فإنَّ هذا يحدث لك في كل مكان، في كل الأماكن التي اجتمعت معها فيها. وعندما ترحل، يُصبح الأمر غريباً، سوف تتذكرها هناك، سوف ترى تلك المساحة خالية منك إلّا إذا كنتَ معها كما كانت هي معك ولكن عندما كنتَ فتى في الخامسة والعشرين من العمر ولم تعُد كذلك الآن. تتخيّلها وهي تمشي بخطواتها الواسعة هكذا مرتدية ثوبها القصير والجميل. مُقبلة عليك. أشبه بإلهة الحب والجمال أفروديت. ثم تتجاوزك، وترحل، ويخرج الفيلم الإباحي عن السيطرة.

أسْتعلِمُ عن عشّاقها (ولكن ما الفائدة من معرفتي؟)، أطلب منها أنْ تُخبرني عن عدد الذين ضاجعتهم قبلي ومتى بدأ الأمر وإنْ كان قد سبقَ لها أنْ ضاجعت فتاة أخرى أو شابّين معاً (أو حصاناً، أو ببغاءَ، أو قرداً)،

وحينئذٍ أخبرتني أنّه لم تعرف أكثر من خمسة. على الرغم من جاذبيتها، وأناقتها وسِحرها، فإنّه كان لديها عدد قليل نسبياً من العشّاق بالنسبة إلى فتاة عصريّة. إنّه التأثير المُقيِّد للخلفيّة الكوبيّة الثريّة والمُميَّزة (هذا، إنْ كانت تقول الحقيقة). وآخر أولئك العشّاق كان طالباً زميلاً لها أحمق لم يُحسِن حتى نكاحها، ولم يكن يُركِّز إلّا على قذفه هو. إنها القصّة السخيفة القديمة. وليست قصّة رجل يعشق النساء.

بالمناسبة، كانت متناقضة في أخلاقيتها. وأتذكَّر أنّه في ذلك الوقت كان للشاعر جورج أوهيرن، الرجل الذي ظلَّ متزوجاً من المرأة نفسها طوال حياته، عشيقة من حيّ كونسويلا، وكان هناك، في المدينة، يتناول وجبة الإفطار مع صاحبته في أحد المقاهي عندما شاهدته كونسويلا وانزعجتْ. تعرَّفتْ عليه من الصورة التي ظهرتْ على الغلاف الخلفيّ لكتابٍ جديد له كان موجوداً حينئذٍ على الطاولة المُجاورة لسريري، وعلِمَتْ أنني أعرفه. أتتْ إليّ في تلك الليلة. «لقد رأيتُ صديقك. كان مع فتاة عند الساعة الثامنة صباحاً، في أحد المطاعم، وكان يُقبّلها - وهو رجلٌ متزوج». كانت مُبتذلة بصورة متوقّعة في تلك الأشياء في حين أنها كانت تتصرّف بتحرّر من كل التقاليد في علاقتها الغراميّة مع شخصٍ يكبرها بثمانية وثلاثين عاماً. أحياناً كانت تبدو مُرتابة ومُشوّشة في داخلها، ولابد من ذلك؛ ومع هذا، كان يحدث لها شيء معيَّن، شيء غير متوقَّع، مُصطنع وكبير، يُطري تفاهتها ويُغذّي ثقتها بنفسها، وعلى الرغم من كونه مُثيراً، لم يبدُ أنّه كان يُغيِّرها (كما حدث معي) تغييراً شاملاً.

***

أخبرتني كونسويلا، خلال أحد استجواباتي، بأنَّ هناك صديقاً في المدرسة الثانوية كان يبدي رغبة شديدة في أنْ يُراقبها وهي تحيض. وكانت كلما بدأت تحيض، تستدعيه، فيحضر من فوره، وتقف هناك، ويُراقب الدماء وهي تتدفق من بين ساقيها إلى الأرض. سألتُها «أفعلتِ ذلك من أجله؟»، «نعم»، قلتُ «وعائلتك، ماذا عن عائلتك التقليديّة؟ لقد كنتِ في الخامسة عشرة، ولا يمكنك أنْ تمكثي في الخارج خلال فصل الصيف بعد الساعة الثامنة مساءً، ومع ذلك فعلتِ هذا؟ وجدّتكِ الدوقة تعشق سبحتها

وصلواتها، ومع ذلك فعلتِ هذا؟»، «كنتُ قد تجاوزتُ الخامسة عشرة. كنتُ حينئذٍ في السادسة عشرة»، «ستة عشر. فهمت. هذا يُفسِّر كل شيء. وكم مرَّة فعلتِ ذلك؟»، أخبرتني، «كلما أتتني الدورة الشهريّة. كل شهر «مَنْ كان ذلك الفتى؟ ظننتُ أنّه لم يكن يُسمح لصبي حتى بدخول غرفتك. مَنْ كان؟ مَنْ هو؟»

كان صبيّاً مقبولاً اجتماعيّاً. كوبيّاً أيضاً. اسمه كارلوس ألونسو. مُهذَّب جداً، وكامل الأوصاف، كما أخبرتني، كان يأتي إلى بابها لكي يُرافقها مُرتدياً بذلة ويضع ربطة عنق، ولم يكن يُناديها قط وهو يقف على حافة الرصيف، بل يدخل ويُقابل والديها ويجلس معهما. كان صبيّاً مُحافِظاً سليل عائلة طيبة تعي تماماً مكانتها الاجتماعيّة. وكما كان الحال في عائلتها يحظى الوالد باحترامٍ جمّ، والجميع على قدر كبير من الثقافة، والجميع يُحسنون التكلم بلغاتٍ عِدَّة بسلاسة، ويرتادون المدارس المناسِبة، وينتسبون إلى النادي الريفيّ المناسِب، ويقرؤون «*إل دياريو*» [1] و «*سجل بيرغن*» [2]، ويُحبون رونالد ريغن، وبوش، ويكرهون كينيدي، وهم كوبيون أثرياء طِبقاً لحق[3] لويس الرابع عشر، ويتّصل كارلوس بي ويطلب مني ألّا أحيض في غيابه.

تخيّل هذا. بعد الدوام المدرسيّ، والحمّام، ومقاطعة بيرغن الريفيّة، وكلاهما مذهول أمام لغز تدفّق حيضها كأنّهما آدم وحوّاء. لأنّ كارلوس مفتون أيضاً. هو أيضاً يعلم أنها عمل فنيّ، المرأة النادرة المحظوظة التي هي عمل فني، من الفن الكلاسيكي، الجمال بصيغته الكلاسيكيّة، لكنّه حيّ، حيّ، والاستجابة الجماليّة للجمال الحي هي ماذا، أناقة؟ إنها شهوة. نعم، إنَّ كارلوس هو مرآتها. ولطالما كان الرجال مرآتها. بل إنهم يرغبون في مشاهدة حيضها. إنّها السِحر الأنثويّ الذي لا يستطيع الرجال الإفلات منه. كانت بالمعنى الثقافي ترتدي الماضي الكوبيّ المُزركش، لكنَّ ما تسمح به يصدر عن غرورها. ما تسمح به يصدر عن نظرها إلى المرآة وقولها «يجب أنْ يرى هذا شخصٌ آخر»

1- صحيفة تصدر باللغة الإسبانيّة في الولايات المتحدة. - المترجم

2- سجل بيرغن: صحيفة واسعة الانتشار في ولاية نيو جيرزي الأميركيّة. - المترجم

3- أي الحق الإلهي.

قلتُ لها «اتّصلي بي *أنا* عندما تبدئين الحيض. أريد منك أنْ تحيضي *هنا*. أنا *أيضاً* أريد أنْ أشاهد»

أيضاً. هكذا *تتكشَّف* الغيرة، هكذا تكون الشهوة محمومة – وهكذا يحدثُ أمر شبه كارثيّ.

لأنني في تلك الأثناء، وفي ذلك العام، كنتُ على علاقة غراميّة مع امرأة مسؤولة، وذات شخصيّة قويّة جداً، وسِحرٍ طاغٍ، بلا جراح مُعيقة، وبلا آثام أو وِجهات نظر متطرفة، وصاحبة ذكاء ثاقب، ويُعتَمَدُ عليها في كل المواقف، وصارمة في جدّيتها بحيث إنها بعيدة عن الظُرف الخفيف بل عاشقة جذّابة، خبيرة وحسّيّة. وقبل ذلك بسنين عديدة، تعود إلى منتصف حقبة الستينيات، كانت كارولين ليونز أيضاً طالبة عندي. ولكن خلال العقود الفاصلة، لم يسع أيّ منا إلى البحث عن الآخر، وهكذا عندما تقابلنا مُصادفة في الشارع عندما كانت كارولين في طريقها إلى مركز عملها في صباح أحد الأيام، تعانقنا وتمسّك كلٌ منا بالآخر كأننا وسط حدث عنيف ومُفاجئ، وكأنَّ حرباً عالميّة فرَّقتْ بيننا طوال السنوات الأربع التالية (وليس توجُّهها إلى كاليفورنيا لكي تلتحق بكليّة الحقوق). وأعلنَ كلٌ منا مُعبِّراً عن دهشته من مظهر الآخر الرائع، وتذكّرنا ونحن نضحك جنون إحدى الليالي في مكتبي عندما كانت في التاسعة عشرة، وقلنا أشياء شتى رقيقة عن الماضي، وفي الحال اتّفقنا على موعد على العشاء في اليوم التالي.

كانت كارولين لا تزال جميلة، ذات قَسَمات وجه كبيرة، ومُشعّة، على الرغم من أنّه تحت العينين الرماديتين الشاحبتين كان المِحجران المُتّسعان قد أصبحا رقيقين ومُرهقَين، وذلك، في رأيي، لم يكن بسبب أرقها المُزمن بل بسبب ذلك المُركَّب من خيبات الأمل الشائعة في سِيَر حياة النساء الحرفيّات الناجحات في أربعينيات أعمارهن اللواتي غالباً ما تُسلَّم لهنّ وجبات العشاء على أبواب شققهن في حي مانهاتن ضمن أكياس من البلاستيك بيد أحد المُهاجرين. وأصبح جسمها يحتلّ من المساحة أكثر مما كان يفعل في السابق. طُلِّقَتْ مرتين، ولم تُنجِب أطفالاً، وتؤدي عملاً مُتطلّباً، براتبٍ كبير، يستدعي السفر كثيراً إلى ما وراء البحار – ذلك كلّه زاد من وزنها مقدار خمسة وثلاثين رطلاً، وهكذا عندما اجتمعنا في السرير همستْ لي، «لم أعُد

كما كنت»، فأجبت، «أتعتقدين أنني بقيت كما كنت؟»، ولم نُضِف أيّة كلمة أخرى على هذا الموضوع.

في عام التخرّج، كانت كارولين قد أقامت في غرفة واحدة مع إحدى مُثيرات المشاكل في الجامعة، زعيمة شغب ذات جاذبيّة طاغية من حقبة الستينيات، على طراز آبي هوفمان[1]، اسمها جيني وايات، فتاة من مانهاسّتْ كتبت أطروحة تخرّج فاتنة تحت عنوان «مائة طريقة لتكون منحرفاً في المكتبة العامة»، وأقتطفُ منها الجملة الافتتاحيّة، «إنَّ الاستمناء في المكتبة العموميّة يمثّل جوهرها، الانتهاك المُطهِّر، البقعة السوداء في حرم الجامعة». كان وزن جيني يبلغ ما يُقارب المائة رطل، وطولها لا يتجاوز الخمسة أقدام، تقريباً، وشقراء ضئيلة كأنَّ من الممكن التقاطها من الشارع والعبث معها، وكانت سيدة القذارة في الكليّة.

حينئذٍ كانت كارولين تخشى جيني. كانت كارولين تقول لي، «إنها تُقيم العديد من العلاقات الغراميّة. وفي وقت واحد. إذا ذهبتَ إلى شقّة أحدهم، طالب في سنة التخرّج، أو مُوجِّه شاب، فسوف تجد ملابس جيني الداخليّة مُعلَّقة لتجفّ على مقبض حنفيّة الدشّ». وتخبرني كارولين، بينما الطلاب الذين يسعون إلى ممارسة الجنس يقطعون أرض الحرم، يشعرون فجأة بإلحاح الشهوة، فيتصلون بها. وإذا كانت تشاركهم الرغبة، ينطلقون إليها. بينما هم يمشون، يتوقفون فجأة، ويقولون «أعتقد أنني سأتّصل بجيني»، ويتغيّبون عن الدرس. وكان العديد من أعضاء إدارة الكليّة يتذمّرون من صراحة سلوكها الجنسيّ ويعتبرونه غباءً. حتى بعض الفتية - كانوا يتحدثون عنها بوصفها عاهرة ومن ثم ينطلقون في الحال لكي يُضاجعوها. لكنها لم تكن غبيّة ولا عاهرة. كانت جيني تعرف ماذا تفعل. كانت تقف أمامك، بضآلتها، منفرجة الساقين قليلاً، بثبات، وبكل نمشها، وبشعرها الأشقر القصير، لا تضع من مساحيق التجميل أكثر من أحمر شفاه برّاق، وترسم تكشيراً محترفاً صريحاً وواسعاً كأنها تقول: هكذا أنا، وهذا ما أفعل، إذا لم أُعجبك، فهذا شيء مؤسف.

1- آبي هوفمان (1936-1989): ناشط سياسي واجتماعي أميركي يهودي من حقبة الستينيات. - المترجم

ما أشدّ ما أدهشني في جيني؟ بطرقٍ مُتعدِّدة - خلال أيام التمرّد الأولى التي جرت في حرم الجامعة، ظهرتْ أشياء كثيرة دلَّتْ على أنها مخلوق جديد، يلفت الانتباه. والغريب أنّها أدهشتني بفعلها شيئاً قد لا يبدو الآن مُتطرِّفاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار التقدُّم في الجراءة الذي أحرزته النساء منذ ذلك الحين، وهذا لا يُنافس بالضرورة التوهّج المُتحدّي لوضعها العام. إنَّ أشدّ ما أدهشني منها هو فوزها بأشدّ الرجال حياءً في الجامعة، شاعرنا. كان المعبَر بين الكليّة والطلاب مُثيراً ليس لأنّه جديد بل لأنّه في العراء، ويُعلل وقوع حوادث طلاق وليس طلاقي فقط. ولم يكن الشاعر يتمتَّع بالمهارات التي عند الآخرين في وضع اهتماماته الدنيويّة في المُقدّمة. وجنَّد أنانيته من أجل اللغة وحدها. وفي الختام مات من الإفراط في شرب الخمر، في سن مُبكّرة نسبيّاً، لكنَّ الخمر وحده كان يستطيع أنْ يجعل ذلك الرجل على سجيّته، وهو وحيد في أميركا الدمثة. كان متزوجاً، ولديه طفلان، وخجولاً إلى أقصى مدى بدل أنْ يرتقي المنصّة ويُحاضِر في الشِعر بتألُّق. كان من المستحيل إغواء ذلك الرجل بالخروج من الظلال، إلّا بالنسبة إلى جيني، في إحدى الحفلات. كان العديد من الطلاب، من الشبّان والشابات، يريدون التقرُّب منه، وكانت الفتيات الذكيّات كلّهن مفتونات به، بذلك الرومانسي الغريب عن الحياة ولكن بدا أنّه لا يثِقُ بأحد. إلى أنْ تقدَّمت جيني منه في إحدى الحفلات وأمسكتْ بيده وقالت، «هيا نرقص»، وسرعان ما علِمنا أنه أصبح في عهدتها. بدا أنّه وضع ثقته فيها في الحال. وشِعار الصغيرة جيني وايات: كلّنا سواسية، كلنا أحرار، ونستطيع أنْ نحطّ أينما نشاء.

شكّلت جيني وكارولين، بالإضافة إلى ثلاث أو أربع فتيات أخريات من الطبقة الراقية، زمرة سمَّتْ نفسها «فتيات المجرور». حسن، لم تكن تلك الفتيات يُشبهن أحداً عرفته في حياتي، وليس لأنهنّ يرتدين أسمالاً غجريّة ويسرن حافيات. كنَّ يمقتن البراءة، ولا يتحمّلن الخضوع للإشراف، ولا يخشين كونهنّ بارزات وسرّيات. بالنسبة إليهن كان تمرّد المرء على وضعه هو كل شيء. كان يمكن لهنّ ولأنصارهنّ أنْ يكنَّ، تاريخيّاً، أول موجة من الفتيات الأميركيات المنغمسات بالكامل بشهواتهن. لا سفسطة، ولا

أيديولوجيا، ليس هناك إلّا ملعب المتعة الذي لا يفتح أبوابه إلّا للجريئات. وتطوّرت الجراءة مع إدراكهن أنّ الاحتمالات، عندما أدركنَ أنهنَّ لم يعدنَ خاضعات للرقابة، هي أنهنَّ لم يعُدنَ تابعات للنظام القديم أو يرضخن لأي نظام من أي نوع - عندما أدركنَ أنَّ في استطاعتهنّ أنْ يفعلن ما يشأن.

في أول الأمر كانت ثورة مُرتجلة، ثورة الستينيات؛ كانت طليعة الجامعة ضئيلة، أقلّ من واحد في المئة، ربما واحد ونصف في المئة، لكنَّ ذلك لم يكن يهمّ لأنَّه سرعان ما تبعها الجزء المُتذبذب من المجتمع. إنَّ الثقافة دائماً تقودها أضيق نقطة فيها، وبين النساء الشابات في الجامعة كانت تلك النقطة هي فرقة جيني «فتيات المجرور»، طلائع النساء لقدح شرارة تغيير جنسيّ عفويّ كامل. وقبل عشرين عاماً، في أيام دراستي، كان حرم الجامعة يُدار بطريقة مثاليّة. بإجراءات عمليّة، وإشراف لا يُناقَش. كانت السلطة تصدر عن مصدر كافكاويّ بعيد -«الإدارة»- وكان يمكن للغة الإدارة أنْ تكون مُستمدَّة من القديس أوغسطين. وتحاول أنْ تجد طريقك المُراوِغ حول هذه السيطرة، ولكن بحلول عام 64-، كان كل مَنْ خضع للرقابة تقريباً يطيع القانون، كانوا أعضاء في المكانة الممتازة لما سمّاه هوثورن «الطبقة المُحبّة للحدود». ثم وقع الانفجار الذي طال انتظاره، الاعتداء المُدمِّر على الحالة السويّة لما بعد انتهاء الحرب وعلى الإجماع الثقافيّ. وانهار كل ما كان عصيّاً على المُعالجة، وبدأ التحول الذي لا رجعة عنه للشباب.

لم تتوصّل كارولين إلى تحقيق ما أنجزته جيني في مجال سوء السمعة، ولا هي أرادتْ ذلك. كارولين اشتركتْ في الاحتجاج، وفي التحريض، وفي المرح الوقح ولكن، بلجوئها إلى الانضباط المتميِّز، لم تصل إلى النقطة التي يمكن أنْ يُهدِّد التمرّد عندها مستقبلها. والحال الذي وصلتْ كارولين إليه الآن إلى منتصف العمر -اندمجت تماماً في العالم، واستقامت بلا شكوى- لا يفاجئني. لم يكن هدف كارولين قط توجيه إهانة في قضيّة الإجازة الجنسيّة. ولا كان في مُجمله تمرّداً. أمّا جيني -ودعني أستطرد برهة وأتحدث عن جيني، التي تُشبه بلَغْوها بطل كونسويلا كاستيللو سيمون بوليفار. نعم، كانت زعيمة ثوريّة عظيمة على غرار بطل أميركا الجنوبيّة بوليفار، الذي دمّرت جيوشه سلطة إسبانيا الاستعماريّة- فمن أنصار

العصيان المُسلَّح لا تهاب قتال قِوى عُظمى، ***ومُحرِّرة*** واجهتْ أخلاقيات الجامعة السائدة وقضَتْ في نهاية المطاف على هيمنتها.

أما اليوم، وحسب عِلمي، فإنَّ إعلان الاستقلال يسمح بالسلوك الجنسيّ الحر للفتيات المُهذّبات في صفي، وهذا يتطلَّب منهنّ القليل من أي نوعٍ من الشجاعة للاستفادة منه في تناسقٍ مع السعي إلى السعادة حسب مفهومها الذي كان سائداً في فيلادلفيا عام 1776. في الحقيقة، إنَّ كل ما ليس مكبوحاً ويقبله أهل كونسويلا وأهل ميراندا بداهة وبلا مبالاة مُستمد من وقاحة جيني وايات المُدمّرة، والمُخزية ومن النصر المُذهل الذي أنجزوه في الستينيات عبر قوة السلوك الوحشيّ. والبُعد الفظ للحياة الأميركيّة التي شوهِدَتْ سابقاً في أفلام العصابات هو الذي أحضرته جيني إلى حرم الجامعة، لأنَّ هذه هي الشِّدة التي تطلّبها تفكيك دعامات الأعراف الاجتماعيّة. هكذا تتشاجر مع حرّاسك - بلغتك القبيحة وليس بلغتهم.

وُلِدَتْ جيني في المدينة، ثم ترعرعت في الضواحي، في لونغ أيلند، مانيسوتا. كانت أمّها مُعلّمة وتنتقل يوميّاً إلى حي كوينز، الذي كانت العائلة قد غادرته إلى مانهاسِتْ حيث ما زالت الأم تُدرِّس الصف العاشر. وكان الوالد ينتقل في الاتجاه المقابل ليقطع مسافة الميلين إلى غريت نيك، حيث كان يعمل شريكاً في مكتب مُحاماة مع والد كارولين. ومن هنا تعرَّفَت كلٌّ من الفتاتين على الأخرى. وأثار منزل الضاحية الخالي كل عَصَب جنسيّ في جسم جيني. كانت تُثار جنسيّاً عندما تتغيَّر الأجواء، وهكذا غيّرتها. كانت تغيِّر كل شيء. وكمنتْ براعة جيني في أنّها أدركت، عندما وصلتْ إلى هناك، وظيفة الضواحي. في المدينة لم تكن قط فتاة حرَّة، ولم تتصرَّف على هواها كما كان يفعل الفتية. أما في مانهارسِت فاكتشفت حدودها. كان هناك جيران لكنهم ليسوا قريبين كما هم عليه في المدينة. كانت تعود إلى المنزل من المدرسة وتجد أنَّ الشوارع خالية، تشبه بلدات الغرب الأميركي العنيف القديمة. ولا أحد في الجوار. الجميع رحلوا. وهكذا ريثما يعودون جميعهم إلى منازلهم على متن القطار كانت تقوم بعمليّة صغيرة، بعرضٍ جانبيّ. وبعد ذلك بثلاثين عاماً، انحطّتْ جيني وايات وتحوّلتْ إلى شبيهة

لإيمي فيشر[1]، وعملت بكدّ في ورشة تصليح سيارات بشكل مُستقلّ، لكنَّ جيني كانت ذكيّة ونقابيّة بالفطرة -صلبة، وقحة، وجريئة تركب أمواج التغيير. والضواحي، حيث لم تكن الفتيات مُضطرات، وهنَّ في أمانٍ من أخطار المدينة، إلى الخضوع إلى قيود صارمة، وحيث لا يُظهِر الآباء قلقاً شديداً وصارماً، الضواحي كانت بمنزلة مدرستها الأميركيّة الخاصّة. الضواحي أوجدتْ حيزاً رحباً من أجل ازدهار هذه الثقافة وسط منطقة من الممنوعات. التقليل من الرقابة، والإفساح التدريجي للحيِّز من أجل أولئك الفتية الذين زوّدهم الدكتور سبوك بأدوات العصيان- وازدهرتْ، حتماً. وانتشرتْ بلا قيود.

ذلك كان التحوُّل الذي كتبت جيني عنه في أطروحتها. وتلك كانت القصّة التي حكتها. عن الضواحي. والجرعة. الجرعة التي منحت النساء المُساواة. والموسيقى. وليتل ريتشارد يحثّ كل شيء. آلام الحوض. السيارة. الفتية في الخارج ويقودون السيارة معاً. الازدهار. الانتقال. الطلاق. والكثير من تسلية البالغين. الحشيش. المُخدِّر. الدكتور سبوك. هذا كلّه يقود إلى جامعة سيد الذباب، كما كانت «فتيات المجرور» تُسمّي جامعتنا. لم تكن خليّة جيني خليّة ثوريّة تُفسِد الأشياء. جيني لم تكن بيرناردين دورن[2] أو كاثي بودين[3]. ولا تحدثت معها بيتي فريدان[4]. و «فتيات المجرور» لا اعتراض لديهن على الخلاف الاجتماعي والسياسي، لكنَّ هذا كان الجانب الآخر من ذلك العقد. كان هناك نوعان من الاضطراب: نزعة تأييد مبادئ الحرية التي تمدّ السماح بالعربدة إلى الفرد وتعارض الاهتمامات التقليديّة للمجتمع، ولكن تُرافقها، وغالباً ما تقترن بها، الاستقامة المشتركة فيما يتعلّق بالحقوق

1- إيمي فيشر (ولدت عام 1974): في سن السابعة عشرة قتلتْ زوجة عشيقها، وأدينت وحُكم عليها بالسجن سبع سنوات. وبعد خروجها من السجن أصبحت كاتبة، وموديلاً، وممثلة أفلام إباحيّة. - المترجم
2- بيرناردين دورن: ناشطة سياسيّة شيوعيّة أميركيّة. - المترجم
3- كاثي بودين: ناشطة يساريّة أميركيّة. أُدينت بالاشتراك بارتكاب جريمة قتل. - المترجم
4- بيتي فريدان: ناشطة أميركيّة في مجال حقوق المرأة.

المدنيّة ومُناهضة الحرب، والعصيان الذي تنحدر هيبته الأخلاقيّة من ثورو. والنوعان المُتّصلان جعلا من الصعب التشكيك في العربدة الجماعيّة.

لكنَّ خليّة جيني كانت مُكرَّسة للمتعة، وليست خليّة سياسيّة. وخلايا المتعة تلك لم توجد فقط في حرم جامعتنا بل كانت مُنتشرة في كل يوم وتعدادها بالآلاف، من فتية بملابس ملوّنة وفتيات لا تفوح منهن دائماً رائحة ذكيّة يتورطون معاً في سلوك متهوّر. ارقص واصرخ، وأنجز العمل[1] – ذلك كان نشيدهم الوطني، وليس «النشيد الرسمي». موسيقى مُباشرة، شهوانية، من أجل ممارسة الجنس على إيقاعها، وإطلاق العِنان، موسيقى شعبيّة. وطبعاً، لطالما كانت الموسيقى مفيدة من أجل الجنس، ضمن الحدود السائدة. حتى في زمن غلين ميلر، كان ينبغي ذكر الجنس في أغنية في حيّ الغناء الشعبيّ من خلال قصة حب رومانسيّة، من أجل ترطيب الجو قدر الإمكان. ثم هناك الشاب سيناترا. ثم عزف السكسوفون الحالم. وماذا عن حدود «فتيات المجرور»؟ كنَّ يستخدمن الموسيقى كما يستخدمن المُخدرات، كمُحفّز، كرمز لتمرّدهن، كمُحرِّض على التخريب الجنسي. وخلال فترة مُراهقتي، في أثناء عصر موسيقى السوينغ، لم تكن هناك غير معاقرة الخمر تضعك في المزاج الصحيح. بالنسبة إليهم كان هناك مستودع من مُضادّات المنع.

كان وجود تلك الفتيات في صفّي ثقافة لي: أرى كيف يُنظّمن أنفسهن، أراقبهن ينبذن سلوكياتهن ويُبرزن فظاظتهن، وأشاركهنّ في الاستماع إلى موسيقاهن، وأُدخّن معهن وأستمع إلى غناء جانيس جوبلن، النسخة البيضاء من بيسي سميث، التي تصرخ بالنيابة عنهن، وفتاة الحانات، وإلى جودي غارلند تحت تأثير المُخدرات، أستمع معهن إلى جيمي هندريكس، الذي يُعادل تشارلي باركر في العزف على الغيتار، وأتخدَّر معهنّ وأستمع إلى هندريكس وهو يعزف على الغيتار بالعكس، يعكس كلّ شيء، يؤخِّر الإيقاع، يُسرِّع الإيقاع، وجيني تغني، لازمتها المُخدّرة، «هندريكس والجنس، هندريكس والجنس»، وتصدح كارولين لازمتها، «رجل جميل

1- عنوانان لأغنيتين معروفتين لفريق البيتلز. – المترجم

وصوت جميل» - أراقب ترنّح فتيات جيني، وشهيتهن وإثارتهن، اللواتي لا يشعرن بالرعب البيولوجي للانتصاب، ولا بالخوف من تحولات القضيب عند الرجل.

كانت شبيهات جيني وايات الأميركيّة في حقبة الستينيات يعرفنَ كيف يتعاملن مع الرجال المُلتَهَمين. وهنَّ أنفسهنّ كنَّ مُلتهَمات، لذلك كنَّ يعرفن كيف يتعاملن معهم. لم يكن دافع الذَكر المُغامِر، والحدس الذكريّ، تصرّفاً متمرّداً يتطلّب الشجب وإصدار حكم قضائي بشأنه بل إشارة جنسيّة يستجيب لها المرء أو لا يستجيب. لكي يتحكّمنَ بحافز الذكر ويُسجّلنه؟ لم يكنَّ مُثقفات في ذلك النظام الأيديولوجيّ. كنَّ مفرطات في العبث بحيث لا يمكن تلقينهنّ العِداء والاحتقار والضيم من أعلى. كنَّ مُثقفات في النظام الغريزيّ. ولم يكنّ مُهتمّات بتبديل النواهي القديمة والمُحرّمات والإرشاد الأخلاقيّ بصيغٍ جديدة من الرقابة وبأنظمة جديدة من السيطرة وبمجموعة جديدة من المعتقدات التقليديّة. كنَّ يعرفن من أين يحصلن على المتعة، ويعرفن كيف يستسلمن للشهوة من دون خوف. لا يخشين الدافع العِدائيّ، عميقاً في المُشاجرة المتحولة -وللمرة الأولى على الأرض الأميركيّة منذ أنْ عزلتْ حكومةٌ كنسيّة نسوةً مستعمرة بليموث الحاجّات من أجل مُكافحة فساد اللحم وآثام البشر- جيل يستمدّ نتائجه من فروجهن بشأن طبيعة التجربة ومباهج العالم.

أليستْ بوليفار هي وحدة النقد في فينزويلا؟ حسنٌ آمل، في ظلِ حكم أول رئيس أنثى لأميركا، أنْ يتحوّل الدولار ويُصبح اسمه وايات، لأنَّ جيني لا تستحق أقلّ من ذلك. لقد جعلت الانتساب إلى المتعة أمراً شائعاً.

نقطة جانبيّة -هناك مركز تجاريّ إنكليزي عند نقطة متقدّمة في ميري ماونت يتبارك فيه متطهرو بليموث- أتعرف هذا الأمر؟ هي مستوطنة فورتريدنغ، أصغر حجماً من بليموث، تقع على مسافة حوالي ثلاثين ميلاً إلى شمال غرب بليموث، حيث تقع اليوم كوينسي، في ولاية ماساتشوستس. وفيها يشرب الرجال الخمر، ويبيعون الأسلحة للهنود، ويتمشّون مع الهنود. ويمرحون مع العدو. ويُضاجعون نساء الهنود، الذين من عاداتهم أنْ ينكحوا من الخلف. وهناك موقع وثني في ماساتشوستس ذات المذهب التطهّريّ

المتزمّت، حيث يُستمدّ القانون من الكتاب المُقدَّس. ويرقصون حول ساريّة شهر نوّار وهم يضعون أقنعة تمثل الحيوانات، ويُصلّون عنده مرّة كل شهر. ولدى الكاتب هوثورن أقصوصة تدور حول تلك السارية، وفيها: يُرسِل الحاكم إنديكوت مرتزقته من المتزمّتين بقيادة مايلز ستانديش لكي يقطعها، كانت عبارة عن شجرة صنوبر مُزيّنة بأكاليل وبرايات مُلوّنة وبأشرطة وبقرون الوعول وبالورود ويبلغ طولها ثمانين قَدَماً. «إنها تمثّل المرح والكآبة يتنافسان للهيمنة على الإمبراطوريّة» - هكذا فهمها الكاتب هوثورن.

ذات يوم هيمن على ميري ماونت شخص مُضارب، ومُحام متميِّز ويتمتّع بجاذبيّة قوية، اسمه توماس مورتون، أشبه بمخلوق من الغابة كالذي ظهر في مسرحيّة «*كما تحب*»، أو كشيطان عنيف كما في مسرحيّة «***حلم منتصف ليلة صيفيّة***». وشكسبير هو مُعاصِر لمورتون[1]، وُلِدَ قبل ولادة مورتون بحوالي أحد عشر عاماً. وكان مورتون مولعاً بشكسبير فنبذه متزمتو بليموث، ثم طرده متزمتو سالم - شدّوه إلى آلة التعذيب، وفرضوا عليه غرامة، وسجنوه. وفي الختام نفوه إلى ولاية مين، حيث توفي في أواخر ستينيات عمره. لكنّه لم يستطع أنْ يُقاوم استفزازهم. كان بالنسبة إلى المتزمتين مصدراً للفتنة الحسّيّة، لأنّه إذا لم تكن تقوى المرء مُطلقة، فإنها تؤدي منطقيّاً إلى شخص مثل مورتون. كان المتزمتون يشعرون بالرعب من انجراف بناتهم وانحرافهن على يدي هذا المازج بين الأعراق المرح هناك في ميري ماونت. رجل أبيض، هنديّ أبيض، إغواء العذارى نحو الانحراف؟ كان هذا أسوأ من سرقة الهنود لهم. كان مورتون ينوي أنْ يُحول بناتهم إلى فتيات قذرات. وهذا هو مصدر قلقهم الأساسيّ بعد تجارته مع الهنود وبيعهم أسلحة ناريّة. كان المتزمتون شديدي القلق بشأن الجيل الشاب، لأنّه حالما يخسرون الجيل الشاب، فإنَّ التجربة التاريخيّة في التعصّب الديكتاتوريّ سوف تموت. إنها قصة أميركيّة سحيقة في القِدَم: أنقذوا الشبّان من الجنس. ومع ذلك دائماً يفوت الأوان، يفوت الأوان لأنهم وُلِدوا وانتهى الأمر.

1- توماس مورتون (1579-1647): مستوطن في شمال أميركا، جاء من ديفون في إنكلترا، وكان مُحامياً وكاتباً ومُصلحاً اجتماعياً، أسّس مُستعمرة ميريماونت. - المترجم

قاموا مرّتين بترحيل مورتون إلى إنكلترا لكي يُحاكَم بتهمة العصيان، لكنَّ الطبقة الحاكمة في إنكلترا والكنيسة الإنكليزيّة لم يكونا في حاجة إلى انفصاليّي نيو إنغلند. وفي كل مرّة كانت قضية مورتون تُسقَط، ويحزم مورتون أمتعته للعودة إلى نيو إنغلند. ويقول الإنكليز في نفوسهم، إنّه على صواب، نورتون هذا - نحن أيضاً لا نرغب في العيش معه، لكنّه لا يُجبِر أحداً على ذلك وأولئك المتزمتون الملاعين مجانين.

في كتاب «*مزرعة بليموث*» الذي ألّفه الحاكم وليم برادفورد، يكتب الحاكم بإسهاب عن شرور بلدة ميري ماونت، وعن «الإسراف المُستهتر» و«الزيادة الفائضة». «لقد سقطوا في الانفلات الكبير وعاشوا حياة فجور، وانغمسوا في الدنس». سمّى المتواطئين مع مورتون «المُعربدين المجانين»، وصنَّفَ مورتون «سيد الفوضويين» وأستاذ «مدرسة الإلحاد». إنها أيديولوجيّة الحاكم برادفورد القويّة. في القرن السابع عشر كانت التقوى تعرف كيف تكتب جُملاً. وكذلك الأمر العقوق. ومورتون أيضاً نشر كتاباً. عنوانه «*الكنعانيّ الإنكليزيّ الجديد*» موضوعه قائم على أساس مُراقبة مجتمع الهنود بافتتان -لكنَّه كتاب سفيه حسب قول برادفورد، لأنّه يدور أيضاً حول المتزمتين وكيف حوّلوا «الدين المُجرَّد من الإنسانيّة إلى عرض مسرحي كبير». مورتون صريح. مورتون لا يُهذِّب ما يقول. يجب أنْ تنتظر ثلاثمائة عام قبل أنْ يظهر صوت توماس مورتون من جديد في أميركا، بكلامه غير المُهذَّب، على غرار هنري ميللر، التصادم بين بليموث وميري ماونت، وبين برادفورد ومورتون، وبين القانون والتمرّد- النذير الاستعماريّ للاضطراب الوطني الذي جرى بعد ذلك بثلاثمائة وثلاثين عاماً ونيف عندما وُلِدَتْ أخيراً أميركا التي تخيّلها مورتون، بما فيها من تمازج أجناس وكل شيء.

كلا، لم تكن حقبة الستينيات حقبة شاذّة. والفتاة وايات لم تكن شاذّة، بل كانت من أنصار مورتون بالفطرة في الصراع الدائر منذ البداية. سوف يسود النظام في البريّة الأميركيّة. كان المتزمتون عملاء النظام والفضيلة الإلهيّة والعقل القويم، وعلى الجانب المقابل كان انعدام النظام. ولكنْ لِمَ لا يكون الوضع هو نظام وانعدام النظام؟ لِمَ لا يكون هو مورتون لاهوتي اللانظام

العظيم؟ لِمَ لا يُرى مورتون كما هو، الأب المؤسِّس للحريّة الشخصيّة؟ في الدولة الثيوقراطيّة[1] التطهّريّة كان المرء حرّاً في أنْ يفعل الخير؛ في بلدة مورتون ميري ماونت كان حراً - هذا كل شيء.

وكان هناك العديد من أشباه مورتون. تجّار مغامرون من دون لاهوت القداسة، أناس لا يأبهون إنْ كانوا من خيرة القوم أم لا. جاؤوا مع برادفورد على متن السفينة «*ماي فلور*» وهاجروا لاحقاً على متون سفن أخرى، لكنكَ لا تسمع عنهم في عيد الشكر، لأنهم لا يطيقون مجتمعات القديسين والمؤمنين حيث لا يُسمح بأي انحراف. كان أبطالنا الأميركيون الأوائل يضطهدون مورتون: أمثال إنديكوت، وبرادفورد، ومايلز ستاندبش. وشُطِبَت بلدة ميري ماونت من النسخة الرسميّة لأنها ليست قصة مدينة فاضلة بل مدينة الصراحة. ومع ذلك كان ينبغي حفر قسمات وجه مورتون على جبل رشمور. وهذا أيضاً سوف يحدث، في اليوم نفسه الذي سيغيّرون اسم الدولار ليُصبح وايات.

***

ماذا عن بلدة ميري ماونت التي أعرفها؟ وأنا وحقبة الستينيات؟ حسن، لقد تعاملتُ بجديّة مع اضطراب تلك السنوات القليلة نسبيّاً، وتعاملتُ مع الكلمة السائدة حينئذٍ، التحرُّر، بمعناها الكامل. حدث ذلك عندما تركتُ زوجتي. وبعبارة أدقّ، هي اكتشفتْ صِلتي بفتيات المجرور فطردتني. ثم إنّه كان هناك آخرون في الكليّة أطالوا شعورهم وارتدوا ملابس غريبة، لكنهم كانوا فقط يلهون. كانوا مزيجاً من المتلصّصين والمتنقّلين في رحلات قصيرة. وأحياناً كانوا يُغامرون، لكنهم لم يتمادوا إلى درجة الارتباط. لكنني صمّمتُ، حالما شهدتُ الفوضى السائدة، أنْ أستخلص من اللحظة الحاضرة مبادئي الخاصّة، أنْ أتحرَّر من ولاءاتي السابقة ومن ولاءاتي الحاليّة وألّا أفعل ذلك كعملٍ جانبيّ، ألّا أكون، مهما بلغتُ من العمر، أدنى مستوى من أنْ أقوم به أو أعلى مستوى أو ببساطة أنْ أدعه يُدغدغني، بل أنْ أتبع منطق هذه الثورة حتى نهايتها، وأنْ أتفادى أنْ أكون أحد ضحاياها.

وهذا يتطلّب بذل بعض الجهد. ومجرد عدم وجود نصب تذكاريّ

1- الدولة الثيوقراطيّة: الحكومة الدينيّة المؤلّفة من رجال الدين.

يحمل أسماء الذين شاركوا في الثورة وأخفقوا لا يعني أنّه لم تقع ضحايا. ليس بالضرورة أنْ تقع مجزرة، ولكن كان هناك الكثير من الكسر. لم تكن ثورة جميلة حدثتْ على مستوى نظريّ فخم، بل كانت فوضى صِبيانيّة، متطرفة، جامحة، ومنافية للعقل، كان المجتمع برمّته في حالة من الغليان. على الرغم من أنّه كان هناك أيضاً جانب هزليّ. كانت ثورة تشبه في وقت واحد اليوم الذي تلا الثورة - أنشودة رعويّة كبيرة. خلع الناس ملابسهم الداخليّة وأخذوا يتجولون وهم يضحكون. وفي الغالب لم تكن أكثر من مهزلة، مهزلة صبيانيّة. لكنَّ المُدهِش هو أنّها كانت مهزلة صِبيانيّة بالغة الأثر؛ في الغالب لم يكن الأمر أكثر من جيشان مُراهِق للقوة، مُراهقة أكبر، وأقوى جيل أميركي ظهرتْ هورموناته دفعة واحدة. لكنَّ الأثر كان ثوريّاً. وتغيّرت الأشياء إلى الأبد.

كانت نزعة المرء إلى الشك، ونزعته إلى السخرية، والحسّ السليم الثقافي-السياسيّ الذي يُبقيه في الحالة العاديّة بعيداً عن الحركات الجماهيريّة، حجاباً واقياً. لم أكن كغيري من الناس، ولم أرغب في ذلك. بالنسبة إليّ كان العمل هو فصل الثورة عن أدواتها المباشرة، وعن زخارفها المَرَضيّة وتفاهاتها البلاغيّة وعقاقيرها ذات المفعول المتفجِّر التي تدفع الناس إلى القفز من النوافذ من أجل تجنّب الأسوأ ومن أجل القبض على الفكرة واستغلالها، ولكي يقول المرء لنفسه، يا لها من مُصادفة، يا لها من فرصة لكي أعيش ثورتي. لماذا أكبح نفسي لأنّه تصادفَ أنّني وُلِدتُ في هذا العام وليس في ذاك؟

كان في استطاعة الذين يصغرونني بخمسة عشر، أو عشرين عاماً، المُستفيدين ذوي الامتياز من الثورة، أنْ يخوضوها بلا وعي. كان هناك هذا الفريق، هذا الفردوس القذر من الفوضى، الذي انتحلها بلا تفكير أو الاضطرار إلى التفكير، وفي المعتاد بكل تفاهاتها وقذاراتها. أما أنا فكان عليّ أنْ أفكّر. ها أنذا، في ذروة حياتي والبلد يلج هذا الزمن الاستثنائيّ. فهل أنا مُرشَّح أم لا لهذا التبرؤ الخشن، والقذر، والعنيف، هذا الهدم الكامل للماضي المكبوت؟ هل أستطيع أنْ أتفوق في انضباط الحريّة في مواجهة تهوُّر الحريّة؟ كيف يُحوِّل المرء الحريّة إلى نظام؟

معرفة الجواب تكلّف الكثير. لديّ ابن يبلغ الثانية والأربعين من العمر ويكرهني. لا داعي للخوض في هذا الأمر. المهم هو أنَّ الجماهير لم تأتِ وتفتح باب زنزانتي. الجماهير الحاشدة كانت هناك، ولكن ما حدث هو أنني اضطررتُ إلى فتح الباب بنفسي، لأنني أنا أيضاً كنتُ مُذعناً ومُحبَطاً بعمق، حتى وإنْ كنتُ أتسلَّلُ من المنزل، في أثناء زواجي وأضاجع أيّ امرأة تُتاح لي. وهذا النوع من تحرُّر عقد الستينيات هو ما كنتُ أُفكّر فيه منذ البداية، ولكن في البداية، بدايتي، لم يكن هناك أي شيء يُشبه المُصادقة الجماعيّة على شيء كهذا، ولا تيار اجتماعي يجرفك ويأخذك معه. لم تكن هناك إلّا العقبات، إحداها كانت طبيعة المرء المتمدنة، وأخرى كانت إحدى بداياته البسيطة، وواحدة ثقافته في الأفكار غير اليهوديّة عن الجديّة التي لا يستطيع أنْ يتفاداها وحده. وأضلّني مُنحنى نشأتي وأدخلني في مجال الحياة العائليّة التي لم تكن لديّ أيّة طاقة لتحمّلها، لأنْ أُصبح صاحب عائلة، وحيّ الضمير، متزوجاً ولديه طفل - ومن ثم تبدأ الثورة. وينفجر الوضع كلّه وتتجمَّع كل تلك الفتيات حولي، فماذا أفعل، هل أبقى متزوجاً وأحتفظ بعلاقاتي غير الشرعيّة وأقول لنفسي، هذه هي، هذه هي الحياة المقيَّدة التي تعيشها؟

لم أعثر على طريقي لأنني وُلِدتُ في الغابة وربّتني حيوانات بريّة وبالتالي، ولذلك، تمّت الولادة بطريقة فطريّة. لم أُولَد ذكيّاً في أي من هذه المجالات. أنا أيضاً افتقرتُ إلى المقدرة على أنْ أفعل صراحة ما أردتُ القيام به. ليس الرجل الذي تجلس أمامه هو الذي تزوّج في عام 1956. ولكي تُكوّن فكرة واثقة عن مجال استقلال المرء الذاتي كنتَ في حاجة إلى دليل لا تعثر عليه، على أي حال لم أعثر عليه في عالمي الصغير، ولهذا السبب بدا الزواج وإنجاب الأطفال، في عام 1956، أمراً طبيعياً حتى بالنسبة إليّ.

في عالم الجنس، وأنا أكبر، لم يكن الرجل حرّاً. بل كان يتسلّل خِلسة، كان لصاً في عالم الجنس. كنتَ «تسرق» لمسة. تسرق جنساً. تتملّق. تستجدي، تُداهن، تلحّ -يجب أنْ تُكافح من أجل نيل الجنس، في مواجهة قِيم إذا لم نقُل إرادة الفتاة. كانت لائحة القوانين تقوم على أساس فرض إرادتكَ عليها. هكذا تعلَّمت المُحافظة على مشهد فضيلتها. كان يمكن لفكرة أنْ تتطوَّع فتاة عاديّة، بلا إلحاح متواصل، لكسر الشِفرة وارتكاب

فعل الجنس أنْ تُربكني. لأنَّ لا أحد من أيّ من الجنسَين كان لديه أي حسّ بوحمة مُثيرة جنسيّة. لم تكن معروفة. إذا أحبّتكَ يمكن أنْ توافق على الاستمناء- وهذا يعني في الأساس استخدام يدك مع يدها في ذلك - أما أنْ يوافق أحدٌ على فعل أيّ شيء بلا مراسم الحصار النفسيّ، والعناد والحضّ المتواصلين الممسوسين، فأمرٌ مستحيل. كان مستحيلاً حتماً الحصول على استمناء إلّا برعايةٍ فوق إنسانيّة. وقد حصلتُ على أحدها خلال أربع سنوات من وجودي في الجامعة. وهذا أقصى ما كان يُسمَح به. في بلدة كاتسكيل الريفيّة المتخلّفة حيث أدارتْ عائلتي فندقاً ومُنتجعاً صغيراً بلغتُ سنّ الرشد في حقبة الأربعينيات، وكانت الوسيلة الوحيدة لممارسة الجنس برضا الطرفين إمّا مع عاهرة أو مع امرأة كانت صاحبتك على امتداد القسم الأكبر من حياتك وفكّرتَ في الزواج منها. وحينئذٍ تدفع ما يترتب عليك لأنك في الغالب تتزوّجها.

وماذا عن والديّ؟ كانا والدَين. وصدّقني، كانت تربيتي عاطفيّة. عندما اضطرَّ والدي أخيراً، بإلحاحٍ من والدتي، إلى مناقشتي حول موضوع الجنس، كنتُ قد بلغتُ سن السادسة عشرة، في عام 1946، وشعرتُ بالاشمئزاز من جهله بما ينبغي أنْ يُخبرني، كان ذلك الروح الرقيقة وُلِدَ في شقة في لوير إيست سايد في عام 1898. وما أراد أنْ يُخبرني به في الغالب كان يصدر عن والد يهودي رقيق من ذلك الجيل: «أنتَ جميل، أنت رقيق، ويمكنك أنْ تُدمِّر حياتك...». وطبعاً لم يكن يعلم أنني قد أُصِبتُ تواً بمرضٍ تناسليّ نقلته إليّ الفتاة الفاجرة في البلدة التي نكحها الجميع. وكان ذلك شيء لا يمكن للأبوين أنْ يتحملاه في تلك الأيام الغابرة.

اسمع، إنَّ الرجال الأسوياء جنسيّاً الذين ينوون الزواج يُشبهون الكهنة الذين يتوجهون إلى الكنيسة: يُدلون بقَسَم العِفّة، من دون أنْ يعرفوها ظاهرياً إلّا بعد مرور ثلاث أو أربع أو خمس سنوات. وطبيعة الزواج ليست أقلّ تسبيباً للاختناق للرجلّ الذكوريّ السويّ جنسياً منها للرجل المثليّ والمرأة المثليّة - إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يُفضّله الرجل الذكوريّ السويّ جنسيّاً. والآن حتى المثليون يريدون أنْ يتزوجوا. زواج الكنيسة. مع مئتين أو ثلاثمائة شاهد. وينتظرون ليروا ماذا سيحدث للشهوة التي دفعتهم إلى أنْ يُصبحوا

مثليين أصلاً. لقد توقّعتُ المزيد من أولئك الرجال، ولكن اتّضحَ أنهم هم أيضاً ليسوا واقعيين. على الرغم من أنني أعتقد أنَّ الأمر يتعلّق بمرض الإيدز. إنَّ القصّة الجنسيّة للنصف الثاني من القرن العشرين عنوانها «**انهيار الواقي الذكريّ ونشوؤه**». لقد عاد الواقي الذكريّ. ومع الواقي الذكري، عاد كل ما تمَّ نسفه في حقبة الستينيات. أيّ رجل يستطيع أنْ يقول إنّه يستمتع بممارسة الجنس بالواقي الذكري كما يستمتع من دونه؟ ماذا يعني له حقاً؟ لهذا السبب تتنافس الأجهزة الهضميّة، في عصرنا، على التفوُّق في كونها فوهة جنسيّة. إنَّها الحاجة المُلحّة إلى الغشاء المُخاطيّ. ولكي يتخلّصوا من الواقي الذكريّ، عليهم أنْ يتّخذوا شريكاً دائماً، ولذلك يتزوجون. إنَّ المثليين متعصّبون: يريدون الزواج ويريدون أنْ ينضموا علناً إلى صفوف الجيش وأنْ يتمّ قبولهم. وأنا أمقتُ هاتين المؤسستين وللسبب نفسه: أي الخضوع للقواعد.

آخر شخص تناول هذه المسائل بجديّة كان جون ميلتون، قبل ثلاثمائة وخمسين عاماً مضت. ألم تقرأ كرّاساته حول الطلاق؟ في أيامه خَلقَتْ له الكثير من الأعداء. إنها هنا، بين كتبي، كنتُ في حقبة الستينيات قد ملأتُ حواشيها بالتعليقات. «هل فتحَ لنا مُخلّصنا باب الزواج هذا الخطِر والعَرَضيّ لكي يوصَد الباب خلفنا كأنّه بوابة الموت...؟». كلا، إنَّ الرجال لا يعرفون أيّ شيء -أو يتظاهرون بإرادتهم بأنهم لا يفهمون- عن الجانب الصعب، المأساويّ عمّا يرمون إليه. وفي أحسن الأحوال يقولون في أنفسهم برزانة، نعم، أفهم أنني عاجلاً أو آجلاً سوف أتخلّى عن الجنس في زواجي هذا، لكنَّ ذلك لكي أحصل على أشياء أخرى، قيِّمة أكثر. ولكن هل يُدركون ما الذي يتخلّون عنه؟ عن عفّتهم، العيش من دون جنس، حسن، كيف ستتقبّل الهزائم، والتسويات، والإحباطات؟ بكسب المزيد من المال، بجمع أكبر مبلغ من المال؟ بإنجاب كل ما في إمكانك إنجابه من الأطفال؟ إنَّ هذا يفيد، لكنّه بعيد كل البُعد عن الشيء الآخر. لأنَّ الشيء الآخر مُتأصّل في وجودك الجسديّ، في اللحم الذي وُلِدَ واللحم الذي يموت. لأنّك فقط عندما تنكح تنتقم من كل ما تكره في الحياة وكل ما يهزمكَ في الحياة، انتقاماً صِرفاً، إذا لم يكن آنيّاً. عندئذٍ فقط تُصبح حيّاً بكل معنى الكلمة وتُصبح نفسك بكل معنى

الكلمة. ليس الجنس هو الفساد - بل هو ما تبقّى. الجنس ليس احتكاكاً ومرحاً سطحيّاً فقط. الجنس أيضاً انتقام من الموت. لا تنسَ الموت. إياك أنْ تنساه. نعم، الجنس أيضاً محدود في قوته. أنا أعلم جيداً كم هو محدود. ولكنْ أخبرني، أيّ قوة هي الأعظم؟

***

على أيّة حال، بعد مرور ما يقارب العقدين ونصف العقد، أضحت كارولين ليونز أثقل وزناً بمقدار خمسة وثلاثين رطلاً. كنتُ أحبّ شكلها القديم لكنني سرعان ما تعوّدتُ على أنْ أحبّ حجمها الجديد، بكل ضخامة قاعدتها تلك التي تدعم خصرها النحيل. وتركتها تلهمني كأنني غاستون لاشيز[1]. كان ردفها العريض وفخذاها الثقيلان تحدثني عن كل ما هو أنثويّ داخل ثوبها. وحركتها تحتي، ورهافة إثارتها، ألهمتاني بإجراء مُقارنة رعويّة: كحراثة حقل ينتفخ بنعومة. كارولين الزهرة المُقبلة على التخرّج التي لقّحتها، كارولين ذات الخامسة والأربعين عاماً التي حرثتُها. التفاوت في التوازن بين الجزء العِلويّ العجوز المتلوي والجزء السفليّ الجديد والضخم يُضاعِفُ توتّراً آسراً في تصوّري الكلّيّ لها. كانت بالنسبة إليّ هجيناً مُثيراً من الرائدة المقدامة، والمُرتعشة والذكيّة التي لم تستطع أنْ تتوقف عن رفع يدها في غرفة الدرس، المُشاكسة الجميلة بملابس غجريّة، صديقة جيني وايات الحميمة والعاقلة، التي كانت تعرف كل الأجوبة في عام 1965، ذات منصِب مديرة الأعمال التنفيذيّة الحاسمة الذي وصلتْ إليه في منتصف العمر، تحشد قُدراتها لكي تتغلب عليك.

لعلّكَ توقّعتَ أنّه مع مرور الوقت وتوقّف الشغف الملتهب لعلاقة الأستاذ -والتلميذة المُحرَّمة عن الصب في خانة المُتع المُباحة للّحظة الحاليّة، سوف تنضب لقاءاتنا من فتنة الحنين. لكنَّ عاماً انصرم ولم يحدث هذا. وبسبب السهولة والهدوء والثقة الجسديّة المتأصّلة في استئناف اللعب بين رفاق العمل القُدامى وبسبب واقعيّة كارولين- حس التناسب

1- غاستون لاشيز (1882-1935): نحات فرنسي، كان مشهوراً بتماثيله لنساء عاريات. - المترجم

الذي فرضته الإهانات البذيئة كما هو مُتوقَّع على الآمال الرومانسيّة لفتاة من الطبقة المتوسطة الراقية ذات مؤهلات عالية -حصدتُ جوائز كان من المستحيل أنْ أحصل عليها من عبثي المجنون بثديي كونسويلا. وأضحَتْ أمسياتنا المتناغمة، الجادّة في السرير- التي كان يتمّ الإعداد لها عبر الهاتف الخليويّ، في الطريق، كلّما حطَّتْ طائرة كارولين في مطار كينيدي لدى عودتها من إحدى جولات عملها - التي أصبحتْ حينئذٍ تزوِّدني بنقطة الاتّصال الوحيدة مع سرّي قبل تعرّفي إلى كونسويلا. واحتجتُ أكثر من ذي قبل إلى الإشباع الصريح الذي أصبحت كارولين قادرة وحدها على نيله بعد أنْ خضعتْ لاختباره كامرأة واجتازته بكل رصانة. كان كلٌّ منا يحصل بالضبط على ما يُريد. كانت علاقتنا الجنسيّة مغامرة مشتركة أفادتنا معاً وكانت موشّاة بوضوح بسلوك كارولين العملي الرشيق. وهنا تجتمع المتعة والتوازن معاً.

ثم كانت الليلة التي نزعت فيها كونسويلا حشوتها ووقفت هناك في غرفة استحمامي، وإحدى ركبتيها مضمومة إلى الأخرى وهي تنزف، على غرار القديس سيباستيان في مانتينيا، ويسيل الدم على طول فخذيها وأنا أراقب. أكان مشهداً مُثيراً؟ أكان مُبهجاً؟ هل كنتُ مُسمَّراً؟ طبعاً، لكنني من جديد شعرتُ كأنني صبي صغير. أخذتُ أطلب أقصى ما أستطيع الحصول عليه منها، وعندما رضختْ بلا خجل، انتهى بي الأمر إلى إثارة الخوف في نفسي. بدا أنّ أقصى ما في استطاعتي أنْ أفعل -هذا إنْ أردتُ ألّا أدع أسلوبها التلقائيّ الغريب يُنزل بي هزيمة نكراء- هو أنْ أخرّ على رُكبتيّ وألعق كل ما يسيل منها. وهذا ما سمحتْ بحدوثه بلا إدلاء بأي تعليق. وهذا جعلني أشعر بأنني صبي أصغر سناً. الشخص الذي لا يمكن أنْ أكون. إنه حماقة أنْ أكون نفسي. المهزلة الحتميّة لكون المرء أي شخص مهما كان. إنَّ كل زيادة تُضعفني أكثر - ومع ذلك ماذا في وسع رجل نهم أنْ يفعل؟

التعبير المرتسم على وجهها؟ كنتُ أربض عند قدميها، جالساً على الأرض، ووجهي مضغوط على لحمها كأني طفل يرضع، بحيث لم أستطع أنْ أرى أيّ شيءٍ منها. ولكن كما أخبرتك، لا أعتقد أنّها كانت خائفة. لم يكن هناك انفعال جديد طاغ يمكن لكونسويلا أنْ تتعامل معه. وحالما تجاوزنا

الإجراءات التمهيديّة كعاشقين، بدا أنّها أضحت قادرة على استيعاب بسهولة كافية ما أثاره عُريها فيّ. لم تفهم أنَّ رجلاً متزوجاً على غرار جورج أوهيرن يجب أنْ يُقبِّل امرأة شابة ترتدي كامل ملابسها في مكانٍ عامّ عند الساعة الثامنة صباحاً – *ذاك* كان العماء بالنسبة إلى كونسويلا. أما هذا؟ هذا مجرد تسليّة جديدة. هذا القَدَر الجسديّ الذي ترتديه بخفّة كان آتياً إليها. ولا شك في أنَّ الاهتمام الذي أولته السلطة الثقافيّة وهو راكع على رُكبتيه لم يدفعها إلى الشعور بالتفاهة. كانت كونسويلا دائماً تغوي الشبّان، ولطالما أحبّتها عائلتها، وتولّع والدها بها، بحيث إنَّ تملّك النفس، والهدوء، وما يشبه الاتّزان الراسخ، كان الشكل الذي اتّخذته غريزيّاً سِمتها المسرحيّة. لقد تخلّصَتْ كونسويلا بصورة ما من السِمة الخرقاء التي يتَّصِف بها كل شخص.

حدث ذلك في ليلة يوم خميس. وفي ليلة يوم الجمعة جاءتني كارولين مباشرة من المطار، وفي صباح يوم السبت كنتُ أجلس على الطاولة، أتناول وجبة الإفطار، وإذا بها تدخل إلى المطبخ قادمة من الحمّام تلبس رداءً من قماش المناشِف وتحمل بيدها حشوة لعينة ملفوفة بورق المرحاض. أوّلاً أرتني إياها ثم رمتها عليّ. قالت، «أنتَ تضاجع نساء أُخريات. صارحني بالحقيقة، وبعد ذلك سوف أرحل. لا أحبّ هذا. سبقَ أنْ ارتبطتُ برجلين كانا يُضاجعان نساء أُخريات. لم أحبّ ذلك حينئذٍ ولا أحبّه الآن. وخاصّة عندما يحدث معك. إنكَ تُقيم علاقة كالتي تربط بيننا –ثم تفعل هذا. أنت تريد أنْ تجري الأمور على هواك-- أنْ تضاجع كما نفعل نحن خارج الحياة العائليّة وخارج العلاقة الرومانسية –ومن ثم تفعل هذا. لا توجد كثيرات يُشبهنني، يا ديفيد. إنَّ اهتماماتي تُشبه اهتماماتك. أنا أفهم بواطن الأمور. المتعة المتناغمة. أنا فريدة من نوعي، يا أحمق- فكيف تفعل هذا؟». لم تتكلَّم بغضب كزوجة مُحصّنة بالمُطالبة التاريخيّة الصارمة بل كخليلة شخصيّة شهوانيّة رفيعة، شهيرة، لا تقبل الجدل. كان لديها الحق في أنْ تفعل هذا: معظم الناس يُضاجعون أسوأ الأشخاص – أما كارولين فلا تُضاجع إلّا الأفضل. كلا، لم تكن غاضبة؛ كانت تشعر بالمهانة وبالانهيار. ومرة أخرى، اعتبرَ رجل آخر تافه وشرِه مشاعرها الجنسيّة السخيّة غير كافية. قالت «لن أتشاجر معك. أريد أنْ أعرف الحقيقة وبعد ذلك لن تراني أبداً»

حاول أنْ يُحافظ على هدوئه قدر استطاعته، وبقدرٍ مُعتدل من الفضول سألتُها «أين عثرتِ على هذه؟». كانت الحشوة عندئذٍ موضوعة على طاولة المطبخ، بين طبق الزبد وإبريق الشاي. «في الحمّام. في سلّة المهملات»، «في الواقع، لا أعلم لِمَنْ ولا كيف وصلت إلى هناك»، ثم اقترحتْ كارولين عليّ، «لمَ لا تضعها على قطعة الخبز وتأكلها؟»، اكتفيت بالقول، على سبيل الردّ، «سوف أفعل، بكل سرور، إنْ كان هذا يُسعدك. ولكنّي لا أعرف صاحبتها. أعتقد أنني يجب أعرف صاحبتها قبل أنْ آكلها»، «لا أتحمّل هذا، يا ديفيد. إنّه يُثير حنقي»، قلتُ «لديّ فكرة. أو اقتراح. إنَّ في حوزة صديقي جورج مفتاحاً للشقّة. لقد فاز بجائزة البوليتزر، وهو يُعطي دروساً في القراءة، يُدرِّس في النيو سكول، ويُقابل نساءً، وفتيات، ويُضاجع كل اللواتي يُقابلهن، وبما أنَّه من الواضح أنّه لا يستطيع أنْ يجلبهن إلى منزله ويُعرّفهنَّ إلى زوجته وأطفاله الأربعة، وبما أنّه يجد أنَّ حجز غرفة في فندق في نيويورك أمر مُستحيل أحياناً، وبما أنّه دائماً مُفلِس في كل الأحوال، وبما أنَّ النساء يكنَّ دائماً متزوجات، أو العديد منهنّ، ولا يستطيع أنْ يُرافقهنّ إلى منازلهن» -كل كلمة نطقتُها، كانت صادقة حتى تلك النقطة- «أحياناً يُحضرهنّ إلى هنا»

الآن هذا القول لم يكن صحيحاً. تلك كانت الكذبة المتينة نفسها التي أنقذتُ بها نفسي من قبل عندما، على امتداد السنين، تمّ اكتشاف أنَّ بعض المتعلقات الشخصيّة المُجرِّمة لإحدى النساء -على الرغم من أنني أعترف بأنَّ لا شيء منها كان أساسيّاً- إمّا تُركتْ بإهمال أو عن عمد. إنها كذبة الإنسان العادي الخليع. ولا شيء يستحق التباهي بشأنه.

قالت كارولين «إذن جورج ضاجع كل تلك النساء على سريرك»، «ليس كلّهن. بل بعضهن، نعم. إنّه يستخدم السرير الذي في غرفة الضيوف. إنّه صديقي. وزواجه ليس مثاليّاً. يُذكّرني بنفسي عندما كنتُ متزوجاً. وجورج لا يشعر بالنقاء إلّا عندما يرتكب الانتهاكات. وجانبه المُطيع يُثير اشمئزازه. فكيف أرفض؟»، «أنتَ موسوس ولا يمكن أنْ تقبل هذا العرض، يا ديفيد. وأنت مفرط الترتيب، ولا أُصدِّق أيّة كلمة مما تقول. إنَّ كل شيء في حياتك هكذا. كل شيء يُؤخذ بعين الاعتبار. كل شيء في حياتك مدروس-»،

«حسن، هذا وحده يجب أنْ يُقنعك –»، «ثمة شخص آخر كان هنا، يا ديفيد»، قلت «لا أحد، ليس معي. لا أعلم حقاً مَنْ هي صاحبة الحشوة». كان وضعاً متوتراً، عنيفاً، ولكنْ بكذبي بكل فظاظة في وجهها مباشرة، نجوتُ، ولحُسن الحظ لم تتركني عندما أصبحتُ في أمسّ الحاجة إليها. لم تتركني إلّا لاحقاً، وبطلبٍ مني.

عُذراً، يجب أنْ أتلقّى تلك المُكالمة الهاتفيّة. يجب أنْ أُجيب. بعد إذنك...

آسف لأنني أطلتُ الغياب. حتى إنّها لم تكن المُكالمة التي كنتُ أنتظرها. أنا شديد الأسف لأني تركتك وحدك هكذا، لكنّه كان ابني. اتّصل بي لكي يُخبرني بأنّه ما زال يشعر بالمهانة جرّاء كل ما قلتُ في لقائنا الأخير وطبعاً استلمتُ منه الرسالة الغاضبة التي أرسلها.

اسمعي، لم يخطر في بالي قط أنَّ الأمر سوف يكون سهلاً بالنسبة إلينا، وحسب عِلمي ربما بدأ يكرهني حتى من دون تشجيع. كنتُ أعلم أنّه هروب صعب، وأعلم أنني بالكاد أستطيع وحدي أنْ أتجاوز السور. ولو أنني أخذته معي، لو أنَّ ذلك ممكن، لما كان شيئاً مفهوماً لأنّه كان في الثامنة من العمر ولم يكن مُمكناً أنْ أعيش بالطريقة التي أردتُ. واضطررتُ إلى خِداعه، ولا أسامح نفسي على هذا ولن أسامحها أبداً.

خلال هذا العام المنصرِم أصبح زان في سن الثانية والأربعين؛ منذ أنْ بدأ يحضر إلى منزلي من دون سابق إنذار، في الساعة الحادية عشرة، أو الثانية عشرة ليلاً، أو الواحدة، وحتى الثانية صباحاً، وأسمع صوته على هاتف الاتصال البيتيّ. «إنه أنا. دعني أصعد، دعني أدخل!». لقد تشاجر مع زوجته، واندفع مُغادراً المنزل، وركب سيارته، وانتهى به الأمر إلى هنا، رُغماً عنه. بعد أنْ أصبحَ بالغاً، صرنا نكاد لا نتقابل على امتداد سنين عديدة متواصلة؛ وعلى امتداد أشهر طويلة لم نكن نتبادل الحديث عبر الهاتف. وتستطيعين أن تتخيّلي مبلغ دهشتي لدى زيارته الأولى لي في منتصف الليل. سألته، لِمَ أتيتَ إلى هنا. إنّه يواجه متاعب، ويُعاني أزمة. لِمَ؟ لديه

خليلة، شابّة في السادسة والعشرين جاءتْ مؤخّراً لكي تعمل عنده. إنّه يُدير شركة صغيرة تعمل على ترميم اللوحات الفنيّة المتضرّرة. كان ذلك عمل أمّه إلى أنْ تقاعدتْ: ترميم الأعمال الفنيّة. وانخرط في اختصاصها بعد أنْ نال شهادة الدكتوراه من جامعة نيويورك، وانضمّ إلى العمل معها، والآن أصبح العمل مزدهراً جداً، بوجود ثمانية عشر شخصاً يعملون تحت إمرته في عليّة في سوهو. هناك الكثير من العمل في المعارض، عمل مع أصحاب المجموعات الفنيّة الخاصة، وفي مزادات المنازل، وكمُستشار لمعرض سوثي لبيع اللوحات، وما إلى ذلك. وكيني رجل ضخم الجثّة، وسيم، وشديد الأناقة في ملبسه، يتكلَّم بلهجة جازمة، ويكتب بأسلوب ذكيّ، وينخرط بسهولة في الحديث باللغتين الفرنسيّة والألمانيّة - إنّه مُبهِر في مجال عالم الفن. لكنّه ليس كذلك معي. أساس مُعاناته هي نقائصي. حالما يقترب مني تبدأ مُعاناته. إنّه حيويّ في أداء عمله، صحيح الجسم، صلب، وكفؤ في كل المجالات، ولكن يكفي أنْ أتكلَّم حتى أتسبّب في شلل كل مواطن القوة فيه. ويكفي أنْ ألزم الصمت عندما يتكلّم **هو** حتى أنسف كل ما يجعله فعّالاً. إنني الوالد الذي لا يستطيع أنْ يدْحَر، الوالد الذي تخور قِواه في حضوره. لِمَ؟ ربما لأنني لا أكون حاضراً. إنني غائب ومُخيف. غائب وممتلئ بالمعنى. لقد خذلته، وهذا سبب كاف لاستحالة وجود صِلة هادئة بيننا. لا شيء في تاريخ حياتي يُعيق غريزة الابن عن وضع كل عقبة في طريق الوالد.

أنا الأب كارامازوف بالنسبة إلى كيني، القاعدة، القوة الهائلة التي يشعر بها **هو**، قدّيس الحب، الرجل الذي يجب أنْ يُحسِن التصرُّف طوال الوقت، أنّه على خطأ وقاتل أبيه، كأنّه هو الإخوة كارامازوف جميعهم في واحد. إنَّ الأبوين يقومان بدور أسطوريّ في عقول أولادهما، وأنا أعرف أنَّ أسطورتي المُقدَّرة كانت دوستويفسكيّة منذ أواخر السبعينيات، عندما استلمتُ عبر البريد نسخة من أطروحةٍ كان كيني قد كتبها في سنته الثانية في جامعة برينستون، أطروحة حول رواية «***الإخوة كارامازوف***». لم يكن صعباً التيقّن من صِلة الكتاب بوصفه إسقاطاً خياليّاً مُبالغاً فيه على وضعِهِ الخاصّ. وكيني أحد أولئك الأولاد المتحمّسين الذين لأيّة مادة يقرؤونها مغزى شخصيّ

يمحو أي شيء آخر وثيق الصِلة بالأدب. كان حينئذٍ منهمكاً باغترابنا عن بعض، وكانت أطروحته، حتماً، تتركَّز على الوالد، الحسّيّ الفاسق، الفاسد العجوز المنعزل. عجوز مع عشيقاته الصغيرات، المهرج الكبير الذي جمع حوله حريماً من النسوة المنحلات في منزله. والد كان، ربما تتذكَّرين، قد تخلّى عن طفله، وأهمل أولاده كلهم، وكتب دوستويفسكي يقول «لأنَّ الطفل يقفُ عقبة في طريق فسوقه». هل قرأتِ «*الإخوة كارامازوف*»؟ ولكن يجب أنْ تفعلي، ولو فقط من أجل الاستمتاع برسم صورة الضعف الخليع للوالد الشائن.

عندما كان كيني يأتيني مُضطرباً في ثوب المراهقة، فذلك دائماً للسبب نفسه. وما زال: لأنَّ ثمة شيئاً يُهدد فكرته عن نفسه بوصفه شخصاً شديد الاستقامة. وبطريقة أو بأخرى، أقوم بتشجيعه على تعديل تلك الفكرة، لتلطيفها قليلاً، لكنَّ هذا يُثير حنقه فيستدير ويهرع عائداً إلى أمّه. وأتذكّر أنني سألته ذات مرّة، عندما كان في الثالثة عشرة وباشر الالتحاق بالمدرسة الثانوية وبدأ يظهر ويتصرَّف كأنّه أكثر من مجرد طفل، عمّا إذا كان يُفضّل أنْ يمكث معي خلال فصل الصيف في منزلٍ كنتُ قد استأجرته في كاتسكيلز، ليس بعيداً عن فندق والديّ. حدث ذلك بعد ظهيرة أحد أيام شهر أيار وكنا نشاهد مباراة لفريق ميتس. كان يوم أحد عادي من أيام الآحاد المؤلمة ونحن معاً. كان شديد الحزن بسبب الدعوة إلى درجة أنّه اضطرَّ إلى أنْ يهرع لكي يتقيّأ في مرحاض الرجال في شيا. وفي الماضي، في العالم القديم، كان الآباء يُعرّفون أبناءهم الجنس بمرافقتهم إلى الماخور، وكأنَّ هذا ما اقترحتُ عليه. لقد تقيّأ لأنه إذا جاء لزيارتي، فقد تكون إحدى فتياتي معي. وربما اثنتان. لأنه حسب تصوّره أنَّ الماخور **هو** منزلي. لكنَّ تقيّؤه لم يُعبِّر فقط عن اشمئزازه مني بل، زيادة على ذلك، عن اشمئزازه من اشمئزازه. لِمَ؟ بسبب ما رغب فيه رغبة يائسة، لأنه حتى مع أبٍ غاضبٍ منه وخائب الأمل، فإنَّ اللحظة التي يقضيانها معاً كانت تتّسِم بقوة هائلة وبشوق عظيم إليه. كان لا يزال صبيّاً وواقعاً في ورطة لا قدرة له على الخروج منها. كان هذا قبل أنْ يكوي جرحه بالتحوُّل إلى متزمت.

خلال سنته الأخيرة في الجامعة قال في نفسه، وكان مُصيباً، إنه ربما

تسبَّبَ في حَبَل إحدى رفيقاته في الصف. في أول الأمر أُصيبَ بالرعب من إبلاغ أمّه بالأمر، لذلك لجأ إليّ، فطمأنته بأنّه إذا تبيَّنَ أنَّ الفتاة حُبلى فهو ليس مُضطراً إلى الزواج منها. نحن لسنا في عام 1901. وإذا قرَّرتْ أنْ تحتفظ بالطفل، كما تصرّ منذ الآن، فذلك خيارها، وليس خياره. وكنتُ مع الاختيار، ولكن لا أعني بهذا أنني مع خيارها لمصلحته. وحثثتُه على تذكيرها بهذا باستمرار، إنّه لا يرغب، وهو في سن الواحد العشرين وقد تخرَّجَ تواً من الجامعة، في أنْ يكون له طفل، ولا يستطيع أنْ يعيل طفلاً، ولا كان في نيّته في كل الأحوال أنْ يكون مسؤولاً عن طفل. فإذا أرادتْ، وهي في الواحدة والعشرين، أنْ تتحمل تلك المسؤوليّة على عاتقها وحدها، فذلك قرار اتّخذته بنفسها ولنفسها وحدها. وعرضتُ عليه نقوداً لكي يُسدد تكاليف إجراء عمليّة إجهاض. وأخبرته أنني أدعمه وأنّه ينبغي ألّا يستسلم. سألني «ولكن ماذا لو أنّها لم تغيِّر رأيها؟ ماذا لو أنّها رفضَتْ بكل وضوح؟»، قلتُ إنها إذا لم تعُد إلى صوابها، فسوف تُضطر إلى تحمُّل العواقب. وذكّرتُه بأنَّ لا أحد يستطيع أنْ يُجبره على فعل ما لا يريد أنْ يفعل. وقلتُ ما تمنّيتُ لو أنَّ رجلاً قويّاً قاله لي عندما أوشكتُ أنْ أرتكب خطأي ***أنا***. قلتُ، «إنَّ العيش في بلدٍ كبلدنا يعتبر أنَّ قضاياه الأساسيّة تدور حول التحرير، وكلها موجّهة نحو ضمان حريّة الفرد، والعيش في ظل نظامٍ حرّ لا يأبه في الأساس بسلوكك ما دام أنَّ ذلك السلوك ضمن نطاق القانون، فإنَّ البؤس الذي قد يعترض طريقك هو في الغالب من صنع يديك. وسوف يكون الأمر مُختلفاً إذا كنتَ تعيش في أوروبا التي يحتلها النازيّون أو يُهيمن عليها الشيوعيّون أو في الصين في ظل حكم ماوتسي تونغ. هناك يُصنّعون البؤس من أجلك؛ أنت لستَ مُضطراً إلى اتّخاذ خطوة خاطئة واحدة بحيث لا ترغب أبداً في الاستيقاظ في الصباح. أما هنا، فإنَّ رجلاً مثلك، متحرّراً من النظام الاستبداديّ، عليه أنْ يجلب بؤسه الخاص إلى نفسه. وزيادة على ذلك، أنت رجل ذكيّ، ومُفوّه، ووسيم، وواسع الثقافة - ***خُلقتَ*** لكي تُكافح في بلدٍ كهذا. هنا المُستبدّ الوحيد الكامن هو الأعراف، ولا ينبغي أيضاً أنْ

يُستهان بها. اقرأ توكفيل[1]، إذا لم تكن قد قرأته بعد. إنه ليس من النوع الذي يفوت أوانه، ليس عندما يتناول موضوع «إنَّ الناس يُجبرون على الخروج من المنخل نفسه». والمعنى هو أنّه لا ينبغي عليك أنْ تعتقد أنَّ عليك أنْ تصبح بصورة مُعجزة وجوديّاً أو بوهيميّاً أو هيبّياً لكي تتملَّص من أغلال الأعراف. ونجاحك في فعل هذا لا يتطلَّب مُبالغة في السلوك أو اختلافاً في الملبس يبدو غريباً على مزاجك الخاصّ وعلى نشأتك. لا يتطلّب هذا أبداً. كل ما عليك أنْ تفعل، يا كين، هو أنْ تعثر على موطن قوتك. إنه لديك، أنا متيقّن من ذلك – ولا تُجمِّده إلّا جِدَّة المأزق. وإذا أردتَ أنْ تعيش بذكاء متجاوزاً ابتزاز الشِعارات والقواعد العشوائيّة كل ما عليك أنْ تفعل هو أنْ تجد طريقك الخاص و...» إلى آخره، إلى آخره. استعرضتُ كل شيء معه: إعلان الاستقلال، ولائحة حقوق الإنسان، وخطاب غيتسبرغ، إعلان تحرير العبيد، والتعديل الرابع عشر، وتعديلات الحرب الأهليّة الثلاثة كلّها. وعثرتُ من أجله على توكفيل كما تخيّلته، في عمر الواحد والعشرين، وأخيراً استطعنا أنْ نتكلَّم. وتفوّقتُ على بولونيوس[2]. وما كنتُ أخبره به لم يكن بعيداً جداً عنه، وحتماً ليس بالنسبة إلى عام 1979. ولا كان يمكن أنْ أستعيده لو أنني احتجتُ إلى أنْ يخطر على بالي *أنا*. إنَّ الحسّ السليم عند الأميركيّ الصالح يجد التعبير عنه في التحرّر. ولكن بعد أنْ ختمت، ماذا فعل؟ بدأ يسرد عليّ مزايا المرأة الممتازة. سألته «وماذا عن مزاياك ***أنت***؟» ولكنّه بدا كأنّه لا يسمعني، بل اكتفى بإخباري من جديد عن مدى ذكائها، وجمالها، وظرفها، وأخبرني عن عائلتها الرائعة، وبعد ذلك ببضعة أشهر تزوّجها.

أنا أعرف كل الاعتراضات التي يمكن لشاب نقيّ وأخلاقيّ أنْ يُبديها لكي يُطالب بسلطته الشخصيّة. أنا أعرف كل المعلومات المُثيرة للإعجاب التي

1- ألكسيس توكفيل (1805–1859): أرستقراطي، ودبلوماسيّ، وعالِم سياسيّ، وفيلسوف سياسيّ ومؤرّخ فرنسيّ. أشهر أعماله «الديموقراطيّة في أميركا». – المترجم

2- بولونيوس: شخصيّة في مسرحيّة وليم شكسبير **«هاملت»**. هو والد أوفيليا وليرتيس. فضوليّ، وثرثار ووقح. – المترجم

ينبغي ربطها بعدم مُطالبة المرء بسلطته. في الواقع، إنَّ الصعوبة التي يواجهها كيني هي أنَّ عليه أنْ يُثير الإعجاب مهما كان الثمن. إنّه يعيش في خوفٍ من امرأة تقول له إنّه ليس كذلك. وكلمة «أنانيّ» هي الكلمة التي تشلّه. يا ابن الحرام الأنانيّ. إنه يرتعب من إطلاق هذا الحكم عليه، لذلك هذا هو الحكم السائد. نعم، اعتمدْ على كيني في أي شيء يُثير الإعجاب، مهما يكن، ولهذا السبب عندما انتسب تود، ابنه الأكبر، إلى المدرسة الثانويّة وقالت زوجة ابنه إنَّ عليهما أنْ يُنجبا المزيد من الأطفال، أصبحَ والداً ثلاث مراتٍ أُخَر خلال السنوات الست التالية. وحينئذٍ بالضبط سئمها. ولأنه يُثير الكثير من الإعجاب، لا يستطيع أنْ يترك زوجته من أجل العشيقة، ولا يستطيع أنْ يترك العشيقة من أجل الزوجة، وطبعاً لا يستطيع أنْ يتخلّى عن أطفاله. ويعلم الله أنه لا يستطيع أنْ يترك أمّه. والشخص الوحيد الذي يستطيع أنْ يتخّلى عنه هو أنا. لكنّه نشأ مع لائحة من الآلام، وهكذا خلال السنوات التي تلت الطلاق مباشرة، كنتُ كلما قابلته أُضطر إلى الدفاع عن قضيتي، في حديقة الحيوان، في دار السينما، في أثناء مباراة في الكرة، مُبيِّناً أنني لستُ كما تقول أمّه عني.

لقد تخلّيتُ عن القضيّة لأنني ***حقّاً*** كما تقول عني. كان صنيعتها، وعندما حان وقت التحاقه بالجامعة، لم يكن في نيّتي أنْ أجادل شخصاً تسبّبتُ في تقيّؤه بعمق. تخلّيتُ عنها لأنني لم أكن مُهتمّاً بتلفيق الحاجة الأنثويّة التي ليس لدى كيني ما يُدافع به عن نفسه في مواجهتها. كان ابني مُدمناً بصورة قاسية على الشفقة على حاجة الأنثى. وخلال تلك السنين كان وحده مع أمه يعملان على تهذيب هذا الإدمان القديم -الذي، بالمناسبة، كان في أيام تبعيّة المرأة يستعبد أفضل الرجال- وكنا هو وأنا دائماً نقضي معاً أسبوعَين في الصيف في فندق والديّ، وأرتاح لأنَّ والديّ كانا يتوليان العمل. كانا نهمَين إلى القيام بأعمال العائلة، وبسبب تاريخنا لم نستطع أنْ نُساهم في تلك الأعمال. ولكن بعد رحيل الجدَّين، وبعد أنْ وصل إلى سنة التخرّج، وتزوج، وأصبحَ أباً... ظل دائماً مع ذلك يتّصل بي حالما يوَلد أحد أطفاله. تصرفٌ لطيف منه، إذا أخذنا بعين الاعتبار مشاعره نحوي. كنتُ أعلم منذ زمن بعيد أنني خاسر. لكنَّ كيني أيضاً خسر. وعواقب كوني ما أنا عليه طويلة الأمد. إنها كوارث عائلية وراثيّة.

ولكن فجأة أصبح يأتي مرة في الشهر، مرة كل ستة أسابيع، لكي يُفضي بما لديه أمامي حول ما يُسمِّم حياته، والخوف يتبدّى في عينيه، والحنق يملأ قلبه، والإرهاق يتجلّى في صوته؛ حتى ملابسه الأنيقة لم تعد تناسبه. الزوجة تعسة وغاضبة بشأن العشيقة، والعشيقة تتذمّر وتمقت الزوجة، والأطفال خائفون ويبكون في أثناء نومهم. أما ممارسة الجنس الزوجيّ، فأصبحتْ واجباً شنيعاً يؤدّيه برزانة، بل أصبحت الآن تفوق طاقة تحمّله. هناك الكثير من النزاعات، والكثير من أعراض الأحشاء المتوترة، والكثير من الاسترضاء، والكثير من التهديدات، وأيضاً التهديدات المُضادة. ولكن عندما سألته «إذن لِمَ لا تغادر؟»، قال لي إنَّ المغادرة قد تُدمِّر عائلته. لن ينجو أحد، سوف ينهار كل شيء، وسوف تصبح المُعاناة شاملة وهائلة. بدل ذلك، يجب أنْ نتكاتف معاً.

المعنى الضمنيّ هو إلى أيّة درجة كان أكثر تبجيلاً مما كان عليه والده عندما جاءه وهو في الثامنة من عمره. كان لحياته مغزى تفتقر إليه حياتي. هذا هو موطن قوته. في هذا المجال يُهيمن عليّ ويتفوّق.

قلت له «كيني، لِمَ لا تواجه والدك بوصفه أمراً واقعاً؟ واجِهْ أخيراً قضيب والدك. هذا هو واقع كون المرء والداً. إننا نكذب على الطفل في هذه المسائل. بالنسبة إلى الطفل لا توجد صراحة بشأن قضيب الوالد. وكما أنّه لا يمكن جمع العديد من الأزواج في زواج واحد - كذلك يبقى هذا سراً على الأطفال. لكنّك رجل. وتعرف فحوى الأمر. أنت تعرف كل أولئك الفنانين. وتعرف تجّار اللوحات أولئك كلهم. ولابد أنَّ لديك فكرةً ما عن حياة أولئك الزانين. أما زالت تلك هي أكبر فضيحة يمكن تخيّلها؟»

إنَّ كل ما نفعله هو وأنا هو أنْ يُعنِّف كلُّ منا الآخر، ولكن ليس حسب الأصول الراسخة. وبعيداً عن رواية دوستويفسكي، فإنَّ القصّة تقليديّاً هي العكس: الوالد يمثّل السلطة المُقيِّدة المعتادة، والابن عنيد، والتعنيف الشديد يتدفّق في الاتّجاه المُعاكس. لكنّه واظب على المجيء إلى هنا، وكلما رنَّ جرس الباب أسمح له بالدخول. وأسأله «كم عمر عشيقتك؟ ومن المسؤول عنها وهي تُقيم علاقة مع رجلٍ متزوج في الثانية والأربعين، وأب لأربعة أطفال؟ إذن هي ليست مثاليّة. أنتَ وحدك المثاليّ. أنت وأمّك».
يجب أنْ تسمعه وهو يتكلَّم عن تلك الفتاة. إنه عالِم كيميائي وحاصل أيضاً

على شهادة في تاريخ الفن. *وأيضاً* يعزف على آلة الأبو. رائع، أؤكّد لك. حتى في ممارسة الزنا أنت أفضل مني. بل إنّه لا يُسمّيه زنا. إنَّ ممارسته للزنا تختلف عن ممارسة أي شخص آخر له. إنه علاقة ملتزمة إلى درجة أنّه لا يمكن أنْ يُسمّى زنا. وما أفتقر إليه هو الالتزام. إنَّ ممارساتي للزنا لم تكن جادّة بما يكفي لتكون مناسبة له.

حسن، هذا صحيح. لقد حاولتُ ألّا أتعامل معها بجديّة. أما بالنسبة إليه فالزنا هو تجنيد زوجة جديدة. وذهبَ لمقابلة عائلتها. هذا ما كان يُخبرني به، كيف انتقل بالأمس معها بالطائرة لمقابلة أهلها. سألتُه «انتقلتَ بالطائرة إلى فلوريدا، ذهاباً وإياباً خلال يوم واحد لكي تقابل أهلها؟ ولكن هذا زنا. ما صِلة والديها به»، أخبرني أنّه من البداية، وهما في المطار، أبدى والداها بروداً وارتياباً شديدين، ولكن بحلول وقت جلوسهم على مائدة العشاء، أخبراها أنهما أحبّاه. أحبّاه كأنّه ابنهما. وأحبّ الجميعُ بعضهم بعضاً. وكانت الرحلة تستحق العناء. وسألتُه «وهل قابلتَ أخت عشيقتك وأطفالها الظرفاء؟ وهل قابلتَ أخاها وأطفاله هو الظرفاء؟». أوه يا إلهي، يا لذلك السجن الصغير الذي هو زواجه الحالي ويوشك أنْ يُبادله مقابل الأمان الأقصى. قلتُ له، متوجهاً من جديد مباشرة نحو السجن، «كيني، أتريد الإذن والموافقة معاً؟ حسن، لقد تصادَفَ أنني أعطي عن طيب خاطر الإذن والموافقة معاً»، لكنّه لم يتوقف عند هذا الحدّ. لم يكتف بالحصول على الأب الوحيد في هذا البلد الكبير كلّه الذي سوف يُصادق على ما يفعل بل وقد يُزوّده بفتاة أخرى تنتمي إلى عائلة رائعة في فلوريدا. ويجب أيضاً أنْ أستسلم للتفوُّق. قلت «وآلة الأوبو أيضاً. أليس هذا شيئاً رائعاً؟ أنا واثق من أنها تكتبُ شِعراً في وقت فراغها. أنا واثق من أنَّ أبويها يفعلان ذلك أيضاً». أوراق اعتماد، أوراق اعتماد، أوراق اعتماد. هذه لا يمكن أنْ تقبل ممارسة الجنس إذا لم تكن هناك أنثى تهيمن عليه جنسيّاً وتحمل سوطاً تُفرقع به. هذه لن تمارس الجنس إذا لم تكن الأنثى ترتدي ملابس الوصيفة. البعض لا ينكحون إلّا القزمات، والبعض الآخر ينكحون فقط المُجرمات، والبعض ينكحون فقط الدجاج. وابني يستطيع أنْ ينكح فقط فتاة تحمل أوراق الاعتماد الأخلاقيّة المناسِبة. أقول له، أرجوك، هذا انحراف، وهو ليس أفضل ولا أسوأ من أي انحراف آخر. انظر إليه كما هو ولا تشعر بأنكَ مُميَّز.

هذه هي الرسالة التي كان يخشى أنْ تضيع في البريد. تاريخها متأخّر ويعود إلى الليلة نفسها من الأسبوع الأخير حين جاء يُقابلني. كأنني على امتداد هذا العام المُنصرِم من تبادل الإهانات لم أحصل على عشرٍ أُخَر مثلها. كانت البداية، «أنتَ أسوأ عشر مرّات مما ظننت». هذا هو العنوان الرئيس. ثم ما يلي، دعني أقرأه عليك، «أنت تستمر في أسلوبك. لا أصدّق هذا. لا أُصدق الأشياء التي قلتها لي. يجب أنْ تُثبت نفسك طوال الوقت، أنْ تُثبت أنَّ خيارك في الحياة هو الخيار الصحيح وأنَّ خياري هو الخيار الجبان، الخيار الغريب، الخيار الخطأ. لقد أتيتُ إليك وأنا في منتهى البؤس، مع العنف الذهني الذي أنزلتَه بي. إنها حقبة الستينيات -إنّه يُدين بكل ما هو عليه اليوم إلى مدى الجديّة التي نظر بها إلى جانيس جوبلن. فمن دون جانيس جوبلن لما كان قد ظهر وهو في سن السبعين بصورة مثاليّة للأحمق العجوز المُثير للشفقة. بشعره الأبيض الطويل والغزير، واللحم المتدلّي من عنقه شبه المُستتر تحت وشاح الحرير الممتاز- متى ستُضمِّخ وجنتيك بالصباغ الأحمر، يا هر فون آشنباخ[1]؟ ما رأيك بشكلك؟ ألديك أيّة فكرة؟ وذلك التفاني للحياة الأرقى. مانينغ المُحبّ للجمال مُتمركز على القناة الثالثة عشرة، يُكافح وحده من أجل المُحافظة على المعايير الثقافيّة في مجتمع الجماهير الغفيرة. ولكن ماذا عن المُحافظة على معايير الكياسة العاديّة؟ طبعاً أنت لم تتمتَّع بالشجاعة لتبقى في الحياة الأكاديميّة وتكون جديّاً؛ أنت لم تكن جديّاً قط على مدى يوم واحد في حياتك كلها. تُرى، أين هي جيني وايات الآن؟ وبكم من زيجة فاشلة مرّت؟ وكم من انهيارٍ عصبيّ عانت؟ على كم من مستشفى للأمراض النفسيّة تردَّدتْ كمريضة على امتداد كل تلك السنين الطويلة؟ تلك الفتيات اللائي يذهبن إلى الجامعة، ألا ينبغي أنْ يكون هناك مَنْ يحميهنَّ منك؟ إنكَ تمثّل الحِجّة الحيّة لحمايتهن. أنا لديّ ابنتان، هما حفيدتاك، وعندما أفكّر في أنَّ ابنتيّ سوف ترددان على الجامعة ويكون لديهما أستاذ يشبه والدي...»

ويستمر الكلام على هذا المنوال... إلى أنْ... دعني أرى... نعم، إنَّ

1- هر فون آشنباخ: بطل رواية «**موت في مدينة البندقيّة**» لتوماس مان. - المترجم

نبرته أقوى هنا. «إنَّ أولادي خائفون ويصرخون لأنَّ والديهم يتشاجران وأباهم شديد الغضب وسوف يترك المنزل. أتعْلم كيف يشعر شخصٌ لديه أطفال مثلي عندما يعود إلى المنزل ليلاً؟ أتعرف كيف أشعر عندما أسمع أطفالي يبكون؟ ولكن كيف يمكن *لك* أنْ تعرف؟ وأنا الذي كنتُ أحميك. *أنا* حميتك *أنت*. لقد حاولتُ ألّا أصدِّق أنَّ أمي على صواب. وانبريت أدافع عنك، ودعمتك. كان لابد أنْ أفعل ذلك، أنت والدي. حاولتُ بيني وبين نفسي أنْ أجدَ عذراً لك، أنْ أتفهّمكَ. ولكن حقبة *الستينيات*؟ ذلك الانفجار للصبيانيّة، ذلك الارتداد السوقيّ، الغافل والجماعيّ، الذي يُفسّر كل شيء ويجد عذراً له؟ أليس لديك عُذر أفضل؟ لإغواء طالبات قاصرات، وإشباع اهتماماتك الجنسيّة على حساب كل شخص آخر - إنَّ هذا ضروري جداً، أليس كذلك؟ كلا، إنَّ الضرورة هي الالتزام بزواج صعب وتنشئة أطفال صِغار ومواجهة مسؤوليات شخص بالغ. طوال تلك السنين كلها ظننتُ أنَّ أمي تبالغ. لكنَّ ذلك لم يكن مُبالغة. قليلون كانوا يعلمون حتى هذه الليلة ما الذي مرَّتْ به، والألم الذي سبّبتَه لها، ومن أجل ماذا؟ لكي «تتحرَّر»؟ أنا لا أتحمّلكَ، ولم أتحمّلكَ يوماً»

في الشهر الذي تلا عاد من جديد لكي يُخبرني كيف أنّه لا يطيقني. ثم في الشهر الذي تلا، ثم الذي تلا. إنني لم أفقده أصلاً. أخيراً أصبحَ والده ملاذاً. «إنّه أنا. دعني أدخل. اسمح لي بالدخول!». إنَّ وضعه لا يبعثُ فيه أي سخرية من الذات، لكنني أعتقد أنّه يحصل على أكثر مما يُعطي. ألا يحصل على أي شيء؟ بل يجب أنْ يحصل. إنه ليس أحمق البتّة. ولا يمكن لدراما طفولته أنْ تُحاصره إلى الأبد. أهو كذلك؟ حسن، ربما. لعلك على صواب. سوف يظل يُثير شجاراً حول هذا وحتى آخر حياته. ومن بين العديد من النكات واحدة تقول: هناك رجل في الثانية والأربعين، مرتبط بوجود فتى في الثالثة عشرة وما زال يتعذّب بسبب ذلك. ربما الوضع هو نفسه منذ مباراة الكرة. إنّه شديد التوق إلى التحرّر، توّاق إلى الفرار من أمّه، وتوّاق إلى الفرار مع والده، وكل ما يستطيع أنْ يفعل هو أنْ يتقيّأ كل ما في جوفه.

***

استمرتْ علاقتي بكونسويلا مدة تزيد قليلاً على العام ونصف العام. كنا فقط على فترات متباعدة نخرج معاً لتناول وجبة عشاء أو لمشاهدة عرضٍ مسرحيّ. كانت تخاف كثيراً هجوم الصحافة عليها وظهور صورتها في مجلة **بيج سيكس**، ولم أعارض ذلك، لأنني كنتُ كلما رأيتها أرغب في مضاجعتها على الفور من دون أنْ أُضطر إلى الجلوس أولاً ومُشاهدة عرضٍ مسرحيّ رديء. «أنتَ تعلم كيف هي وسائل الإعلام، وتعلم ماذا يفعلون بالناس، وإذا ذهبتُ إلى هناك معك...»، وأقول موافِقاً، «عظيم، لا تقلقي، سوف نكتفي بملازمة المنزل». وأخيراً تقضي الليلة معي، ونتناول وجبة الفطور معاً. كنا نتقابل مرّة أو مرّتين في الأسبوع، وحتى بعد حادثة الحشوة، لم تكتشف كارولين وجود كونسويلا. ومع ذلك، لم أطمئن بشأن كونسويلا، ولم أنسَ أمر الفتية الخمسة الذين نكحوها قبلي، والذين اتّضح أنَّ اثنين منهم كانا شقيقين، أحدهما كان عشيقها وهي في سن الثامنة عشرة، والآخر عندما كانت في العشرين - شقيقان من كوبا، ثريّان من آل فيلاريل يُقيمان في مقاطعة بيرغن، وهذا سبب آخر للمعاناة. ولولا الأثر المُهدِّئ لكارولين وليالينا الرائعة التي أمضيناها معاً، لا أعلم ماذا كان حدث لي.

الهياج الذي سبّبه وجود كونسويلا -كنقيض للهياج الذي سبّبه غيابها- لم ينته إلّا بعد أنْ نالت شهادة الماجستير وأقامت حفلاً في نيو جيرزي في منزل والديها. «طبعاً انتهى أيضاً بالنسبة إلينا نحن الاثنين، ولكنني لم أُخطِّط لتلك النهاية، وبعد ذلك شعرتُ بالحرمان. وبقيتُ على مدى ما يُقارب الثلاثة أعوام أشعر بالكآبة على فترات متقطّعة. كنتُ معها أشعر بالعذاب، وبعد أنْ فقدتها تضاعف الشعور بالعذاب مئة مرّة. كانت فترة عصيبة ولم تتوقف. كان جورج أوهيرن شخصاً ممتازاً، أمضى معي العديد من الأمسيات يحدّثني عندما كنت أجدُ نفسي في حالة نفسيّة متدنيّة جداً. وكانت لدي آلة بيانو ساعدتني في تجاوز تلك المرحلة الصعبة.

***

كنتُ قد أخبرتك بأنني على مدى السنين اشتريت الكثير من المقطوعات الموسيقية، المُعدَّة لآلة البيانو، وهكذا أمضيتُ الوقت في العزف، بعد أنْ أَنتهي من عملي الآخر. خلال تلك السنين عزفتُ سوناتات بيتهوفن الاثنتين

والثلاثين، كل نغمة فيها لكي أطرد ذكرى كونسويلا من تفكيري. لا ينبغي أنْ يُجبَر أحد على الاستماع إلى تلك التسجيلات، التي لم يعُد لها وجود على أيّة حال. بعض الفقرات من تلك المقطوعات كان لها إيقاع ومعظمها ليس له، ومع ذلك استمررتُ في العزف بغض النظر. تصرّفٌ غريب، لكنني نفّذته. ومع الموسيقى التي تُعزَف على آلة البيانو ينتابك شعور بأنكَ تُعيد إنتاج ما كان يُبدعه المؤلّفون الموسيقيّون، وهكذا تُصبح بدرجةٍ ما داخل عقولهم، ليس في الجزء الأشدّ غموضاً، حيث تولَد الموسيقى، لكنّكَ مع ذلك لا تنغمس فقط انغماساً سلبيّاً في التجربة الجماليّة، بل تعمل بأسلوبك الأخرق بصورة ما على إعادة إبداعها داخلك، وهكذا حاولتُ أنْ أهرب من فقداني كونسويلا. عزفتُ سوناتات موتسارت، وعزفتُ موسيقى باخ على البيانو. عزفتها، لأنني أعرفها، وهذا يختلف عن عزفي لها ببراعة. عزفتُ مقطوعات من الفترة الإليزابيثيّة من تأليف بيرد[1] وأمثاله. وعزفتُ موسيقى بيرسل. وعزفت مقطوعات لسكارلاتي. لدي سوناتات سكارلاتي كلها، الخمسمائة والخمسون كلّها. ولن أدّعي أنني عزفتها كلها، بل عزفتُ الكثير منها. ومقطوعات هايدن على البيانو. أصبحتُ أحفظها عن ظهر قلب الآن. وشومان. وشوبرت. وهذا، كما أخبرتك، على أساس القليل جداً من التدريب. لكنّها كانت فترة فظيعة، عقيمة، حين كنتُ إمّا أدرُس موسيقى بيتهوفن وألجُ عقله أو ألازم عقلي وأستعرضُ من جديد صورها التي أتذكّرها - أستعرضُ من جديد، وهذا أسوأ، تهوّري بعدم حضور حفل تخرّجها.

ولكن، في الحقيقة، لم أستطع قط أنْ أتبيَّن كم كانت عاديّة هذه الفتاة التي عرضَتْ عليّ حشوتها، ومن ثم لأنني لم أحضر حفل تخرّجها، قطعتْ علاقتها بي؟ إنَّني أجد السِمة العَرَضيّة لشيءٍ شديد القوة ينتهي كما انتهى شيئاً لا يُصدَّق. إنني أتذكّر السرعة التي انتهى بها، وأتذكّر أنَّ سرّ السرعة يعود إلى أنَّ كونسويلا لم ترغب في استمرارها. لِمَ؟ لأنها لم تشتهيني، لم تشتهيني قط، لأنها جرَّبت الأمر معي، حقاً، لتتبيَّن مدى سطوة ثدييها. ولكنْ

1- وليم بيرد (1543-1623): مؤلف موسيقي إنكليزي، وعازف على القيثارة في كاتدرائيّة لينكوين. - المترجم

هي نفسها لم تكن تحصل قط على ما تريد. كانت تحصل عليه من الأخوين فيلاريل. طبعاً. هناك كانوا كلهم في الحفلة، يتزاحمون عليها، يكتنفونها، سُمراً، وسيمين، بارزي العضلات، دمثين، شبّاناً، وأدركتْ في دخيلتها، ماذا أفعل مع هذا العجوز؟ وهكذا كنتُ على صواب طوال الوقت -ولذلك كان من الصواب أنْ تنتهي العلاقة. لقد تمادتْ قدر استطاعتها. وكل ما استطعتُ أنْ أفعل بالاستمرار هو أنْ أمارس المزيد من تعذيب نفسي. وأشدّ الأشياء ذكاءً قمت به هو أنني لم أحضر ذلك الحفل، لأنني كنتُ أستسلم وأستسلم بطُرُقٍ لم أفهمها. ولم يتلاشَ الاشتياق حتى وهي معي. وكما قلتُ، كان الانفعال الأساسيّ هو الاشتياق. وما زال هو الاشتياق. لا شفاء من الاشتياق ومن إحساسي بأنني متوسّل. ها هو: تحصل عليه وأنت معها وتحصل عليه وأنت بعيد عنها. فمَن الذي أنهاه؟ هل أنهيته أنا بامتناعي عن حضور الحفل، أم هي أنهته بتركيزها على عدم حضوري الحفل؟ هذه هي المُناظرة المُطوّلة التي انخرطتُ فيها ولهذا السبب، لكي أمنع عقلي من الدوران حول مسألة خسارتي كونسويلا- ولكي أتوقّف عن التركيز بصورة زائفة على هذا الحدث الوحيد، الحفلة، بوصفه مفتاح كل ما أسأتُ التعامُل معه - كم من مرَّة اضطررتُ إلى الاستيقاظ في منتصف الليل والعزف على البيانو حتى بزوغ الفجر.

كل ما حدث هو أنها دعتني إلى جيرزي كي نحتفل بنيلها شهادتها وكان ينبغي أنْ أوافق، ولكن بينما كنتُ أقطع الجسر بالسيارة، قلتُ في نفسي، سوف يكون والداها هناك، وجدّاها، والأقرباء الكوبيون، وأصدقاء طفولتها كلهم، وذانك الأخوان سوف يحضران، وسوف تُعرّفني إلى الأستاذ الذي يظهر على شاشة التلفزيون، وسوف يكون أمراً شديد السُخف بعد مرور عام ونصف العام أنْ أتظاهر بأنني لا أعني لهذه المرأة الشابة أكثر من كوني ناصحاً مُخلصاً، خاصة في حضور آل فيلاريل الملاعين أولئك. لقد كنتُ أكبر سناً من أنْ أنخرط في مثل ذلك الهراء، لذلك توقفتُ عند جانب جيرزي من الجسر واتّصلتُ بها هاتفيّاً وأخبرتها بأنَّ سيارتي تعطّلتْ وأنني لا أستطيع أنْ أحضر. كذبة صريحة -كانت سيارتي من نوع بورش ولم يمضِ على حيازتي لها أكثر من عامين- وفي تلك الليلة بالذات، ومن نيو جيرزي، أرسلتْ

إليّ رسالة من جهاز فاكس العائلة، لم تكن رسالة غاضبة أكثر من أيّة رسالة استلمتها من أي شخص آخر، ولكن مع ذلك، ما كان يمكن أنْ أتخيّل أنَّ كونسويلا جامحة إلى تلك الدرجة.

لكنني لم أتمكن من تخيّل كونسويلا كلّها. ما الذي لم أعرفه عنها أيضاً لأنَّ هاجسي حجبه عني؟ صرخت في وجهي في الرسالة: «أنت دائماً تظهر بمظهر العجوز الحكيم الذي يعرف كل شيء»، وصرخت: «لقد شاهدتكَ في صباح هذا اليوم بالذات على شاشة التلفزيون، تقوم بدور العارف بالأمور كلها، الذي يعرف الفرق بين الثقافة الجيدة والثقافة الرديئة، ويعرف ما ينبغي قراءته وما لا ينبغي، ويعرف كل شيء عن الموسيقى وعن الفنون، ومن ثم، احتفالاً بهذه اللحظة الهامة في حياتي، أُقيمُ حفلة، أريد أنْ أُقيم حفلة رائعة، وأريدُ منك أنْ تحضر، أنت الذي يعني لي كل شيء، لكنكَ لا تحضر»، وكنتُ قد أرسلتُ لها هديّة، أزهاراً، لكنها استشاطت حنقاً وغضباً... «السيد الناقد المُثقّف المتغطرس، صاحب السلطة الواسعة على كل شيء، ويُعلِّم الجميع التفكير ويضع الجميع على طريق الصواب! *Me da asco!*»

هكذا ختمت الرسالة. ولم يحدث قبل ذلك قط، ولا حتى بحبّ، أنْ لجأتْ إلى اللغة الإسبانيّة في الكلام معي. *Me da asco*، وهذا قول سائر ويعني، (هذا يُثير اشمئزازي)»

هذا كلّه حدث قبل ستة أعوام ونصف العام. والأمر الغريب هو أنني بعد ذلك بثلاثة أشهر تلقّيتُ بطاقة بريديّة منها، من منتجع درجة أولى في إحدى دول العالم الثالث -بيليز، أو هندوراس، أو ما شابه- وكانت وديّة جداً. ثم بعد ذلك بستة أشهر اتصلت هاتفياً بي. كانت قد قدّمت طلباً لشغل وظيفة في مجال الإعلان، قالت، إنها ما يُشبه الوظيفة ويمكن أنْ أكرهها بسببها، ولكن هلّا أرسلتُ لها رسالة توصية، مع ذلك؟ بوصفي أستاذها السابق. ففعلتُ. ثم وصلتني بطاقة بريديّة (عليها لوحة امرأة عارية للرسام موديلياني من المتحف الحديث) تقول فيها إنها حصلتْ على الوظيفة وإنها غاية في السعادة. وبعد ذلك لم يصلني أي شيء منها. وذات ليلة عثرتُ على اسمها

في دليل هاتف مانهاتن الجديد، وعلى عنوان شقّة يبدو أنَّ والدها اشتراها لها تقع في الحيّ الشرقي العِلوي. لكنَّ فكرة العودة إليها لم تكن صائبة ولم أحاول ذلك.

أولاً، لن يسمح لي جورج بذلك. وعلى الرغم من أنَّ جورج أوهيرن يصغرني بخمسة عشر عاماً، فإنّه كان أستاذي في الحياة، والصديق الأقرب خلال العام ونصف العام لمُصاحبتي لكونسويلا، ولم يُخبرني إلّا لاحقاً عن مدى قلقه عليّ، وكيف أنّه بقيَ يُراقبني بعناية وأنا أتجرَّد من واقعيتي، ومن نزعتي العمليّة، ومن سخريتي وعدم تفكيري في أيّ شيء ما عدا فقداني لها. إنّه الشخص الذي منعني من الإجابة على بطاقتها البريديّة وكنتُ شديد التوق إلى فعل ذلك، واعتقدتُ أنَّ ما دعاني إلى ذلك حركة خصرها المستدير، وحوضها العريض، وانحناء فخذيها الرقيق، ورقعة اللهب التي هي شَعرها التي تُحدِّد مفرقه - دمغة لوحة موديلياني العارية، فتاة الأحلام ذات القسمات الطويلة المُتاحة التي كان يرسمها كأنها طقس واختارتها كونسويلا لترسلها، بكل وقاحة، عن طريق بريد الولايات المتّحدة. العارية التي كان يمكن أنْ يكون ثدياها العاريان، الممتلئان ويميلان قليلاً نحو الجانب، قد صُمِّما على نمط ثدييها. امرأة عارية مرسومة بعينين مُغمضتين، لا يحميها، كما حال كونسويلا، إلّا قوتها الجنسيّة التي هي معاً، على غرار كونسويلا، أساسيّة وأنيقة. امرأة عارية ببشرة ذهبيّة نائمة بصورة مُبهمة فوق هاوية سوداء من المخمل أُشبّهها، حسب مزاجي، بالقبر. تستلقي هناك، كخطٍ طويل، متماوج، في انتظارك، ساكنة كالموت.

إنَّ جورج حتى لم يُرد مني أنْ أكتب رسالة التوصية من أجل الحصول على الوظيفة. قال «سوف تبقى ضعيفاً مع تلك الفتاة. ولن تمسِك بزمام الأمور» وأخبرني جورج «هناك شيء يدفعك نحو الجنون وسوف يبقى الأمر كذلك. وإذا لم تقطع العلاقة إلى الأبد، فإنَّ ذلك الشيء سوف يُدمرك في نهاية المطاف. أنت لم تعُد تُلبّي معها فقط حاجة طبيعيّة. هذا هو علم الأمراض في أنقى صوره»، ثم قال لي «اسمع. انظر إلى الأمر بوصفك ناقداً، انظر إليه من وِجهة نظر احترافيّة. لقد انتهكتَ قانون المسافة الجماليّة. حوّلتَ التجربة الجماليّة مع تلك الفتاة إلى علاقة رومانسيّة -حوّلتها إلى

علاقة شخصيّة، إلى علاقة عاطفيّة، وفقدتَ حسّ الانفصال الضروريّ من أجل استمتاعك. أتعلم متى حدثَ هذا؟ في الليلة التي نزعت الحشوة. والانفصال الجمالي الضروريّ لم يتقوَّض بينما كنتَ تراقبها وهي تنزف- لا بأس بذلك، لا غبار عليه - بل عندما فشلتَ في كبح نفسك وركعتَ على رُكبتيك. وما الذي أجبركَ على ذلك بحق الله؟ ماذا يكمن خلف مهزلة مُرافقة هذه الفتاة الكوبيّة لرجلٍ مثلك، أستاذ في الشهوة؟ لكي يمتصّ دمها؟ أعتقد أنَّ هذا يُشكّل التخلّي عن موقف نقديّ مُستقلّ، يا ديف. لقد قالت، اعبدني، اعبد لغز الإلهة التي تنزف، افعل هذا. لا تتوقف. العقه. التهمه. اهضمه. إنها هي التي تخترقك *أنت*. ماذا ستفعل أيضاً، يا ديفيد؟ هل ستشرب كوباً من بولها؟ متى ستتوسّل إليها لتعطيك برازها؟ أنا لستُ ضد هذا لأنّه غير صحّيّ. أنا ضدّه لأنّه مُثير للاشمئزاز. أنا ضدّه لأنه عِشق. إنَّ الهوس الوحيد الذي يُريده كل شخص هو: «الحب». أيعتقد الناس أنهم إذا عشقوا أصبحوا كاملين؟ باتحاد الأرواح الأفلاطونيّ؟ أنا أعتقد غير ذلك. أعتقد أنَّك كامل قبل أنْ تبدأ. والحب يُمزقّكَ إرباً. أنت كامل، ومن ثم تتصدَّع. لقد كانت جسداً أجنبيّاً دخل إلى كمالك. وعلى مدى عام ونصف العام كافحتَ لكي تندمج معه. لكنّكَ لن تكتمل أبداً إلّا بعد أنْ تنبذه. فإما أنْ تتخلّص منه أو تندمج معه عبر تدمير ذاتك. وهذا ما فعلتَ وما دفعكَ نحو حافة الجنون»

من الصعب التصديق على هذه الكلمات، وليس بسبب طبيعة تفكير جورج الأسطوريّة والشِعريّة فقط، بل من الصعب الإيمان بالقوة الكارثيّة الكامنة في شخصيّةٍ يبدو ظاهريّاً أنّها ليست مُخيفة كما في كونسويلا المُلتزمة بالعائلة، والمحميّة والتقليديّة. لم يتوقف جورج عند هذا الحدّ. «إنَّ الارتباط مُدمِّر وهو عدوّك. يقول جوزيف كونراد: إنَّ كل مَنْ يرتبط يضيع. وجلوسك هكذا شيء سخيف. ها قد تذوّقته. أليس هذا كافٍ؟ ما الذي تأخذ منه أكثر من التذوُّق؟ هذا كل ما نأخذ في الحياة، هذا كل ما نأخذ من الحياة. التذوّق. لا أكثر»

طبعاً كان جورج مُصيباً، وكل ما فعل هو أنّه كرّر على مسمعي ما أعرف. إنَّ كلّ مَنْ يرتبط يضيع، والارتباط هو عدوّي، لذلك استعنتُ بما سمّاه كازانوفا «علاج تلميذ المدرسة» -استعضتُ عن ذلك بالاستمناء. كنتُ

أتخيّلُ نفسي جالساً على آلة البيانو بينما هي واقفة عارية إلى جواري. وذات مرَّة نفّذنا تلك اللوحة بالتمثيل الحيّ، وهكذا كنتُ أتذكّر بقدر ما أتخيَّل. وطلبتُ منها أنْ تتجرّد من ملابسها لكي أنظر إليها بينما أنا أعزف سوناتا لموتسارت مقام سي الصغير، فرضخت. ولا أعلم إنْ كنتُ قد عزفتها أفضل من المعتاد، ولكن هذا لا يهمّ. وفي تخيُّلٍ آخر مُتكرِّر، قلت لها «هذا يُسمّى مُسرِّع الإيقاع. تكفي ومضات خفيفة وقصيرة حتى يُصدِر ضجيج مُتكرِّر. هذا كل ما يفعل. وأنتِ تضبطين الإيقاع كما تشائين. وليس الهواة أمثالي بل المُحترفون أيضاً، وحتى عازفو البيانو في الحفلات الكبرى، يواجهون مشكلة ما يُسمّى الاندفاع». ومرة أخرى، أتخيّلها واقفة بجوار البيانو وملابسها مرخيّة عند قدميها، كما فعلتْ في الليلة التي عزفت، وأنا بكامل ملابسي، سوناتا مقام سي الصغير، متغنياً بعُريها بالحركة البطيئة. (أحياناً كانت تأتيني كحلمٍ متطابق، كجاسوس، فقط كسوناتا «K.457») قلت «هذا مُسرِّع من الكوارتز، وليس الشكل المثلّث الذي قد تكونين قد رأيته، المُزوَّد ببندول، ووُضِع على البندول ثقل صغير، دُوِّنتْ عليه الأرقام. الأرقام هي نفسها التي على البندول»، وعندما تتقدَّم لكي تتفحّص القرص، يبرز ثدياها نحو الأمام ويُغطيان فمي ويخنقان، برهة، الأسلوب المدرسي- الأسلوب المدرسيّ الذي هو مع كونسويلا يمثّل قوتي العُظمى. قوتي الوحيدة.

قلت لها «إنها الأرقام القياسيّة. إذا أدرتِ هذا على الرقم ستين، فسوف يتحول إلى ثوانٍ، نعم، كنبض القلب. دعيني أتحسّس نبض قلبك بطرف لساني»، وتسمح لي بذلك، كما تسمح لكل شيء بيننا أنْ يحدث - بلا تعليق، وتقريباً بلا موافقة. وأقول لها، «في الحقيقة، قبل اختراعه في حوالي عام 1812 -أقصد الجهاز القديم- لم يكن هناك مُسرِّع لإيقاع الموسيقى. وما فعلوا في الأطروحات العامّة بشأن الإيقاع هو أنهم اقترحوا استخدام نبض القلب كنوعٍ من الإيقاع السريع. وقالوا «تحسّس نبضك واعتبر ذلك إيقاعاً». دعيني أتحسّس نبضك برأس قضيبي. اجلسي على قضيبي، يا كونسويلا، وسوف نعزف على الإيقاع. أه، إنّه ليس إيقاعاً سريعاً، أليس كذلك؟ ليس كذلك أبداً. والآن، لا توجد مقطوعة لموتسارت مصحوبة بنبض مُسرِّع، لماذا، لماذا؟ تتذكرين عندما مات موتسارت... «ولكن ها أنا

أحصل على رعشتي الجنسيّة، وانتهى الدرس الخياليّ، وحاليّاً، لم أعدْ أملّ الشهوة. أليس هذا ما قاله ييتس؟» التهمي قلبي؛ لقد مللتُ الشهوة / إنني موثق إلى حيوانٍ يحتضر / لا يعلم ما هذا». هو ييتس. نعم. «لقد علِقتُ في تلك الموسيقى الحسّيّة» وما إلى ذلك.

***

عزفتُ بيتهوفن واستمنيت. وعزفت موتسارت واستمنيت. وعزفتُ هايدن، وشومان، وشوبرت، واستمنيتُ وأنا أحمل صورتها في مخيلتي. لأنني لم أتمكّن من نسيان ثدييها، ثدييها الناضجين، والحلمتين، والطريقة التي تستطيع بها أنْ تُسدل ثدييها على قضيبي وتعبث معي هكذا. تفصيل آخر. تفصيل أخير ثم سأتوقف. إنني أُصبح تقنياً قليلاً، لكنَّ هذا أمر هامّ. كانت تلك هي اللمسة التي جعلتْ من كونسويلا تحفة فنيّة في الـ*volupte* (الشهوة). إنها إحدى النسوة القليلات اللواتي عرفتهنّ وأتينَ وهنَّ يُبرزن فروجهن، يُبرزنها لا إراديّاً كشيءٍ ذي صمّامين، ناعم، غير مُفصَّص ونابض. في المرة الأولى وفوجئتُ. إنكَ تتحسّسه وينتابكَ إحساس بأنّه حيوان من العالم الآخر، شيء من البحر. كأنّه مُتّصل بالمحارة أو بالأخطبوط أو بالحبّار، مخلوق قادم من أعماق سحيقة ومن أزمان موغلة في القِدَم. في المعتاد ترى الفرج وتستطيع أنْ تفتحه بيديك، ولكن في حالتها ينفتح كالزهرة، ويظهر الكسّ من تلقاء ذاته من مخبئه. تنبثق الشفتان الداخليتان نحو الخارج، تنتفخان إلى الخارج، وذلك الانتفاخ الأملس، اللزج مُثير جداً، وملمسه مُهيِّج، وكذلك رؤيته. وينكشِف السرّ مُنتشياً. كان جديراً بالرسام شيله أنْ يهِبَ أي شيء مقابل أنْ يرسمه. وكان جديراً ببيكاسو أن يُحوّله إلى قيثارة.

وتكاد تقذف وأنتَ تراقبها. سوف تُشيح بعينيها بعيداً عندما يحدث معها ذلك. وتوجه عينيها نحو الأعلى ولا تشاهد إلّا بياضهما، في مشهد يستحق المُشاهدة أيضاً. كل شيء فيها يستحق المُشاهدة. مهما كان الهياج الناتج عن الغيرة، مهما كانت المهانة والشك الذي لا نهاية له، كنتُ دائماً أشعر بالفخر لجعلها تقذف. أحياناً لا يقلق المرء حول ما إذا قذفت المرأة أم لا: إنَّ القذف يحدث، ويبدو أنَّ المرأة تهتم بهذا الأمر وحدها وهو ليس من مسؤولية الرجل. إنها ليس مسألة تحدث مع نساء أخريات؛ الأمر يحدث

بساطة، هناك ما يكفي من الإثارة وليست مثار جَدَل. أما مع كونسويلا، نعم، كانت حتماً مسؤوليّتي، ودائماً، دائماً كانت مسألة كبرياء.

***

لديّ ابنٌ مُثير للسخرية في الثانية والأربعين من العمر - مُثير للسخرية لأنه ابني، سجين زواجه بسبب فراري من زواجي أنا ومغزى ذلك بالنسبة إليه والاحتجاج على حياتي الخاصّة التي جعل بكل عناد حياته الخاصّة شبيهة بها. إنَّ إثارة السخرية هو الثمن الذي يدفعه مقابل كونه أصبح في وقتٍ مُبكِّر نسخة من تيليماخوس[1]، المُدافع البطوليّ الصغير عن أمّه الوحيدة. ومع ذلك، خلال السنوات الثلاث من معاناتي المتقطّعة من الكآبة. كنتُ أشدّ إثارة للسخرية ألف مرة مما كان كيني. ماذا أعني بعبارة مُثير للسخرية؟ ما هي إثارة السخرية؟ هي تخلّي المرء إراديّاً عن حريته -هذا هو تعريف إثارة السخرية. إذا أُخِذَت الحرية منكَ عنوة، فلا داعي إلى القول إنكَ لستَ مُثيراً للسخرية، إلّا بالنسبة إلى شخص أخذها منكَ قسراً. ولكنَّ الذي يفرِّط في حريته، الذي يشتاق إلى التخلّي عنها، الذي يلجُ عالم العبث الذي يُذكّرنا بأشهر مسرحيات يونيسكو وهو مصدر للكوميديا في الأدب كلّه. والشخص الحرّ قد يكون مجنوناً، وأحمق، ومكروهاً، وبائساً لمجرّد أنّه حرّ، لكنّه ليس مُثيراً للسخرية. إنّه يتمتّع بأبعاد الكائن المستقلّ. أنا نفسي كنتُ مُثيراً للسخرية بقدرٍ كافٍ مع كونسويلا. ولكن مع مرور السنين وقعتُ خلالها أسير ميلودراما فقدانها الرتيبة. وقرّر ابني، الذي شكّله امتعاضه من قُدوتي، أنْ يُصبح مسؤولاً حيث كنتُ أنا مُقصِّراً، وعاجزاً عن التحرُّر من أي شخص، بدءاً بي- لم يكن ابني ليتمنى أنْ يعرف أكثر من هذا، لكنني بقيتُ أُصرّ على أنني مسؤول، وبقي العنصر الدخيل يزحف. والغيرة تزحف. والارتباط يزحف. مشكلة الارتباط الأبديّة. كلا، ولا حتى النكاح يمكن أنْ يبقى نقيّاً تماماً ومحمياً. وهنا أنا أفشل. أنا المُروِّج الأكبر للنكاح ولستُ أفضل من كيني. طبعاً ليس في النوع الذي يحلم كيني به أي نقاء. عندما يُمارس كلبان

1- تيليماخوس: في الأساطير الإغريقيّة، هو ابن أوديسيوس وبينيلوبى، الذي ساعد والده على قتل المتوددين إلى أمّه. - المترجم

النكاح يبدو أنَّ هناك نقاء. نقول في أنفسنا، ***ها هو*** النكاح النقيّ، إنّه يظهر بين الحيوانات. ولكن إذا ناقشنا الأمر معها، فقد نجد أنّه حتى بين الكلاب هناك تلك التشوّهات المجنونة في الاشتياق، والشغف، والتملُّك، وحتى في الحب، على طريقة الكلاب.

هذه الحاجة. هذا الخبل. ألن يتوقّفا أبداً؟ إنني حتى لا أعلم ما الذي سأشتاقُ إليه بعد قليل شوقاً حارّاً. حلمتاها؟ أم روحها؟ أم فمها؟ أم تفكيرها الساذج؟ ربما الأمر أسوأ من هذا – ربما الآن وقد أصبحتُ قاب قوسين من الموت بتُّ أنا أيضاً أتوق سرّاً إلى ألّا أكون حرّاً.

***

ويمرّ الوقت. يمرّ الوقت. تُصبح لديّ صديقات جديدات. صديقات من الطالبات. وتظهر صديقات قديمات بعد مرور عشرين عاماً أو ثلاثين. بعضهنّ تطلّقنَ مرات عديدة والبعض الآخر منهمكات في تكوين أنفسهنّ مِهنيّاً بحيث لم تُتح لهنَّ فرصة للزواج. واللواتي بقينَ مُستقلات اتّصلنَ بي ليشتكين من ارتباطهن ببعض الرجال. الارتباط بالرجال شيء كريه، وإقامة العلاقات أمر بغيض، والعلاقات الجنسيّة خطرة. الرجال نرجسيون، يخلون من حس الفكاهة، ومجانين، ومتسلطون، ومتغطرسون، وجلفون، أو يتمتعون بوسامة طاغية، ومكتملو الرجولة، ويخونون بلا رحمة، أو هم مُخنّثون، أو عاجزون جنسيّاً، أو أنهم بلهاء تماماً. الذين في عشرينيات أعمارهم لا يُعانون من تلك المشاكل لأنهم ما زالوا يُقيمون صداقات من أيام الجامعة، والمدرسة، طبعاً، هي مكان مثالي للاختلاط، لكنَّ النسوة الأكبر سناً عندما يُصبحن في منتصف ثلاثينيات أعمارهن ينهمكن في أعمالهن إلى درجة أنَّ العديد منهن، كما اكتشفتُ، يلجأنَ إلى صانعات زيجات محترفات ليجدنَ لهنَّ رجالاً. وعلى أيّة حال في سنٍ مُعيَّنة يتوقّفن عن الالتقاء بأشخاص جُدد. وكما أخبرتني واحدة خائبة الأمل، «مَنْ هم الأشخاص الجُدد عندما تقابلهم؟ إنهم الأشخاص القُدامى أنفسهم يضعون أقنعة. لا شيء جديداً فيهم على الإطلاق. إنهم مجرد ***أناس***»

صانعات الزيجات يختلفن في أسعارهن وِفقاً للاشتراك السنويّ،

وخلال تلك الفترة يتم تأمين عدد معيَّن من لقاءات التعارُف. بعض صانعات الزيجات يتلقّين مئتيّ دولار، والبعض الآخر ألفين، وقيل لي إنَّ إحداهن، مُتخصِّصة بما سمّته «الأشخاص الراقين» ترتّب لقاءات تعارُف -يصل عددها حتى خمسة وعشرين على مدى أكثر من عامَين- مقابل مبلغ لا يقلّ عن واحد وعشرين ألف دولار. وحسبتُ أنني لم أسمع جيداً عندما أخبروني بهذا الرقم، ولكن، نعم، التعرفة هي واحد وعشرون ألف دولار. حسن، هذا أمر صعب على النسوة اللواتي ينخرطن بهذا النوع من الصفقات من أجل العثور على رجل يتزوجهن ويكون أباً لأولادهنّ؛ ولا عجب أنْ يأتين في وقتٍ متأخر من الليل لكي يتحدثن، وأحياناً، بسبب شعورهن بالوحدة، يمكثن طوال الليل. ومؤخراً، جاءتْ إحداهن في محاولة لتبرأ من تخلّي أحدهم عنها في أثناء تناول وجبة في أول لقاء لها برجلٍ وَصَفَته بأنّه «من نوع خاص بقضاء الإجازات، ومُغامِر مُسلٍ جداً يصطاد الأسود ويجوب الأدغال». قالت لي «الوضع صعب هناك، يا ديفيد، لأنه لم يكن موعداً غرامياً، بل مجرد *مُحاولة* عقد موعد»، وقالت «وقبلتُ عمليّة عقد اللقاء بكل رزانة، ولكن حتى *هذه* المحاولة باءتْ بالفشل»

إيلينا، إيلينا هرابوفسكي ذات القلب الشفوق، التي شاب شعرها قبل الأوان، ربما *جرّاء* لقاءات التعارف بنيّة الزواج. قلتُ لها «لابد أنّ التعامُل مع الغرباء، وفترات الصمت، وحتى الحديث تشكّل ضغطاً هائلاً». وسألتني «أتظنّ أنّه من المُفتَرَض أنْ يكون الأمر هكذا عندما تصبح ناجحاً مثلي؟». في الواقع، إنَّ إيلينا طبيبة عيون ارتقت من قاع الطبقة العاملة بقوة الجلَد الهائل. وقالت لي «إنَّ الحياة مُربكة، والمرء يُصبح في حالة دفاع عن النفس ويكتفي بالقول فليذهب كل هذا إلى الجحيم. إنّه أمرٌ مؤسف جداً، لكنَّ قِواك تخور. إنَّ بعض أولئك الرجال أشدّ جاذبيّة من الإنسان العاديّ. مُثقّفون. ومعظمهم من ذوي الدخل الجيد»، وأردفت «وأنا لم أنجذب قط إليهم. لِماذا دائماً صحبتهم مملّة؟ ربما هي مملّة لأنني أنا مُملّة»، وتقول إيلينا، «إنّ الرجال يصحبونني بسيارات جميلة. سيارات BMW. ويبثون الموسيقى الكلاسيكيّة على الطريق. ويأخذونني إلى مطاعم صغيرة جميلة، وأجلس معظم الوقت وأنا أفكر، أرجوك، يا رب، فقط أريد أنْ أعود إلى المنزل.

أريد أنْ أُنجب أطفالاً، أريد عائلة، أريد منزلاً، ولكن على الرغم من أنَ لدي ما يلزم من الطاقة الروحيّة والجسديّة لقضاء ست ساعات أو سبع أو ثمان واقفة على قدميّ في غرفة العمليات، فإنّني لا أمتلك تلك الطاقة لتحمّل هذه المهانة. إنَّ **بعضهم**، على الأقلّ، يجدني فاتنة»، «ولِمَ لا يجدونكِ كذلك؟ أنتِ اختصاصيّة شبكيّة العين. وطبيبة جراحة العيون. وتحمين الناس من الإصابة بالعمى»، قالت، «أعلمُ هذا. أعني الرفض التامّ. أنا لم أولَد لهذا»، قلتُ لها «لا أحد وُلِدَ لذلك»، لكنَّ كلامي لم ينفع. قالت، وهي تبكي، «لقد بذلتُ جهداً جيداً، ألم أفعل، يا ديفيد؟ بخروجي مع خمسة عشر رجلاً؟»، قلت «يا إلهي، لقد فعلتِ حقاً»

في تلك الليلة كانت إيلينا في حالة مُزرية. ومكثتْ سحابة الليل وحتى طلوع الفجر، ثم انطلقَتْ تستعد لإجراء العمليات في المستشفى. لم يحظَ أيّ منا بالكثير من النوم لأنني كنتُ أُلقي عليها مُحاضرة حول ضرورة تخلّيها عن فكرة الزواج ولأنها أصغتْ إلي كالطالبة المتفانية، الجادّة التي تدوّن الملاحظات وقابلتها للمرة الأولى في غرفة الدرس. لكنّي لا أعلم إنْ كنتُ ساعدتها. إنَّ إيلينا ذكيّة، وذات كفاءة هائلة، لكنَّ الرغبة في إنجاب طفل بالنسبة إليها هي اللاتفكير النموذجيّ. نعم، إنَّ الفكرة تُحفِّز غريزة التكاثُر، وهذا ما يُثير الشفقة فيها. ولكنّها ما زالت تشكِّل جزءاً من اللاتفكير النموذجي: انتقل إلى الخطوة التالية. إنّه شيء بدائيّ جداً بالنسبة إلى شخص ذي مكانة راسخة. ولكنْ هكذا تخيّلتْ حالة البلوغ قبل وقت طويل جداً، قبل سنين البلوغ، وقبل أنْ تُصبح أمراض شبكيّة العين شغف حياتها.

ماذا قلتُ لها؟ لماذا تسأل؟ أنت أيضاً في حاجة إلى المحاضرة حول صِبيانيّة الاقتران؟ طبعاً هو صِبيانيّ. إنَّ الحياة العائليّة توجد، اليوم أكثر من أي وقت سابق، عندما يخلق الأطفال بشكل أساسيّ روحها. ويكون الوضع أسوأ عندما لا يوجد أطفال. لأنَّ الشخص البالغ بأسلوبه الصِبياني يحلّ محل الطفل. إنَّ الحياة الزوجيّة والحياة العائليّة تفرزان كل ما هو صِبيانيّ في الأشخاص المعنيين بهما. لِمَ ينبغي أنْ يناموا ليلة بعد أخرى في السرير نفسه؟ لِمَ ينبغي أنْ يتحدثوا عبر الهاتف خمس مرات في اليوم؟ لِمَ يتلازمان دائماً؟ إنَّ الاختلاف القسريّ صِبيانيّ حتماً. ذلك الاختلاف غير الطبيعيّ.

ومؤخّراً قرأتُ في إحدى المجلات عن زوجين يعملان في مجال الإعلام متزوجين منذ أربعة وعشرين عاماً وعن الإنجاز الرائع لتعلمهما كيف يتحمّل كلٌّ منهما الآخر. وأخبر الزوج المُراسل الصحفيّ، «أنا وزوجتي نرى أنَّ في استطاعتك أنْ تتبيّن صحّة الزواج من عدد ما تركته الأسنان من علامات على لسانك». وأتساءل، عندما أكون مع أمثال هؤلاء الأشخاص، علام يُعاقب هؤلاء القوم؟ إنها أربعة وثلاثون عاماً. إنَّ المرء يقفُ مُرتاعاً من الضراوة المازوشيّة المطلوبة.

لديّ صديق في مدينة أوستن، كاتب يحقق نجاحاً واسعاً. تزوّج باكراً في منتصف حقبة الخمسينيات، ثم في أوائل حقبة السبعينيات حصل على الطلاق. تزوج من امرأة دمثة أنجبَ منها ثلاثة أطفال مهذبين - وأراد الطلاق. ولم يُطلِّق بهيستريا وبحماقة. كانت قضية حقوق إنسان. أعطني حرّيتي أو أعطني الموت. وبعد وقوع الطلاق ذهبَ لكي يعيش وحده حرّاً وبائساً. وهكذا بعد ذلك بقليل تزوّج من جديد، هذه المرة من امرأة قرّر معها ألّا يُنجب أي طفل، وكان لديها أصلاً صبي في سن الذهاب إلى المدرسة. كان زواجاً **بلا** أطفال. وكان لابد من تخلّيه عن الممارسة الجنسية في غضون عامين، ومع ذلك هذا هو الرجل الذي كان يمارس الزنا بنشاط طوال فترة زواجه الأول وركَّز في كتاباته على الجنس. كان في استطاعته وهو يعيش وحده أنْ يبدأ بالاستمتاع بصراحة بكل ما احتال خلسة على ممارسته في أثناء الزواج. لكنّه لم يخرج من قيوده. إنّه بائس منذ اللحظة الأولى ويعتقد أنّه سيبقى بائساً إلى الأبد. إنّه حرّ في مواجهة الامتلاء، وليست لديه أيّة فكرة عن مكان تواجده. كل ما يُحسِن القيام به هو اقتفاء طريق العودة إلى الوضع الذي لم يعُد في استطاعته تحمّله، وإنْ كان الآن أصبح من دون المنطق المُلزِم للرغبة في الزواج من أجل إنجاب الأطفال، وإنشاء عائلة، إلى آخره. أهو سِحر السريّة؟ أنا لا أنتقص منه. إنَّ الزواج في أحسن حالاته هو مُنبّه قويّ لارتعاشات الخِدع الفاسقة. لكنَّ حاجة صديقي كانت إلى شيء أساسيّ أكثر لسلامته من دراما الزاني اليوميّة في خوض نهر من الأكاذيب. ليس من أجل هذا تزوج من جديد، على الرغم من أنّه حالما أصبحَ زوجاً من جديد استأنف في الحال تقريباً السعي وراء المباهج القديمة. إنَّ جزءاً من

المشكلة هو أنَّ الرجولة المتحرِّرة لا تحصل أبداً على متحدث اجتماعيّ باسمها أو على نظام ثقافيّ. ليس لها وضعٌ اجتماعيّ لأنَّ الناس لا يريدون لها أنْ تحظى بوضعٍ اجتماعيّ. ومع ذلك فإنَّ ظروف هذا الشخص مُفضّلة كثيراً من أجل العيش حتى منتهى امتيازاته، ولو فقط لمجرد ما تتَّسِم به من كرامة. ولكن التأجيل، والتأجيل، والتأجيل؟ والتهدئة، والتهدئة، والتهدئة؟ والحلم بالرحيل في كل يوم تقريباً؟ كلا، إنها ليست طريقة مُبهِجة ليكون المرء بها رجلاً، أو، كما أخبرتُ إيلينا، امرأة.

هل اقتنعَتْ؟ لا أعلم. لا أعتقد ذلك. هل اقتنعت أنت؟ لِمَ، لِمَ تضحكين؟ ما المُضحك في الأمر؟ أهو أسلوبي التعليميّ؟ أتّفقُ معك: إنَّ جانب المرء السخيف لا يخلو أبداً من إثارة الإعجاب. ولكن ماذا يمكن فعله بهذا الشأن؟ أنا ناقد، أنا مُعلِّم - الأسلوب التعليميّ هو قَدَري. والجِدال والجِدال المُضاد هو ما يتألَّف التاريخ منه. فإما أنْ يفرض المرء أفكاره أو تُفرَض الأفكار عليه. شاء ذلك أم أبى، هذا هو المأزق. هناك دائماً قِوى مُضادة، وهكذا، إذا لم يكن المرء مولعاً بجموح بالإخضاع فسوف يكون دائماً في حالة حرب.

اسمع، أنا لستُ من هذا العصر. تستطيع أنْ ترى هذا. تستطيع أنْ تسمعه. لقد حقّقتُ هدفي بمشقّة. وواجهتُ الحياة العائليّة بصعوبة والذين وقفوا يُراقبونها. وواجهتُ حياة كيني. ولا ينبغي أنْ يكون حملي لمطرقة مفاجأة، وليس مفاجئاً أيضاً أنَّ إصراري جعل مني شخصيّة هزليّة بشأن الأمر الذي أصدره مُلحد القرية إليكم أنتم الذين تنتمون إلى العصر الحالي والذين لم تضطروا إلى الإصرار على أيّ من هذا.

الآن، فلنكفّ عن الضحك ونسمح للمعلِّم بإنهاء كلامه. ولا شك في أنّه إنْ كان موضوعَ المتعة، والخبرة، والعصر لم يعُد يُثير الاهتمام... أهو يُثير الاهتمام؟ إذن افهم ما تفهمه مني، ولكن ليس قبل أنْ أنتهي.

في عيد الميلاد الفائت. عيد ميلاد عام 1999، حلمتُ بكونسويلا ليلاً. كنتُ وحدي وحلمتُ بأنَّ ثمة أمراً يحدثُ لها وفكّرتُ في أنّني يجب أنْ أتّصل بها. ولكن عندما نظرتُ في دليل الهاتف، اكتشفُت أنَّ اسمها لم يعد

موجوداً، ولأنني وأنا خاضع تحت تأثير جورج لا أسمح لنفسي أنْ أتعرَّض من جديد للهياج الذي يمكن أنْ يُدمّرني، لم أكن قد دوّنتُ عنوان الحيّ الشرقي العلويّ الذي وجدته في دليل الهاتف قبل ذلك بسنوات، بعد أنْ استلمتْ عملها الأول. وبعد مرور أسبوع، عشيّة حلول العام الجديد، كنتُ وحدي في غرفة الجلوس، بلا فتاة، متعمّداً أنْ أبقى وحدي في تلك الليلة وأعزف على البيانو بنيّة تجاهُل الاحتفال بالمناسبة السنويّة. وإذا لم تكن في حالة من الاشتياق، فإنَّه يمكن أنْ تكون للعيش في عزلة متعته القوية، وتلك المتعة هي التي كنتُ أُخطِّط لها في تلك الليلة. كانت آلة الإجابة الآليّة على المكالمات الهاتفيّة تعمل، وحتى في الحالة العاديّة لم أرفع سمّاعة الهاتف عندما كان يرن جرسه وأكتفي بالاستماع إلى المتكلِّم. وفي تلك الليلة بالذات عزمتُ على ألّا أُصغي إلى أيّة كلمة من أي شخص عن «جرثومة الألفيّة الجديدة» وهكذا عندما رن الهاتف تابعتُ عزفي على البيانو إلى أنْ أدركتُ أنَّ الصوت الذي أسمع هو صوتها. «ألو، ديفيد؟ إنّه أنا، كونسويلا. لم نتحدث منذ فترة طويلة، واتصالي بك أمرٌ غريب، لكنني أريد نْ أخبرك شيئاً. وأريد أنْ أبلغك به شخصيّاً، قبل أنْ تسمعه من شخص آخر. أو قبل أنْ تسمعه فجأة. سوف أتّصل بك من جديد. ولكن إليك رقم هاتفي الخليويّ»

أصغيتُ إلى الرسالة، وأنا متجمّد. لم أرفع السمّاعة، ومن ثم عندما فعلتُ ذلك، كان الأوان قد فاتْ، وقلتُ في نفسي، أوه يا إلهي، لقد وقع ***فعلاً*** خطبٌ لها. وبسبب وفاة جورج تخيّلتُ وقوع الأسوأ لكونسويلا. نعم، لقد مات جورج. ألم تشاهد النعي في صحيفة *تايمز*؟ لقد مات جورج أوهيرن قبل خمسة أشهر. فقدتُ أقرب أصدقائي من الذكور. وأنا الآن عمليّاً بلا أي صديق من الذكور. إنَّ فقداني صداقتي الحميمة لجورج خسارة كبيرة. لديّ حتماً رفاق عمل، أناسٌ أقابلهم في مركز العمل وأتحدث معهم عَرَضَاً، لكنَّ الافتراضات التي يتضمّنها أسلوب حياتهم تتناقض مع أسلوبي بحيث إنَّه من الصعب علينا أنْ نفكّر بحريّة معاً، لأنّه لا تجمعنا لغة واحدة حول الحياة الشخصيّة. كان جورج يُشكِّل كامل عالمي الذكوري، ربما لأنَّ طبقة الرجال التي ننتمي إليها أصلاً صغيرة. يكفي رفيق سلاح واحد: المرء لا يحتاج إلى مُساندة كامل المجتمع. لقد اكتشفتُ أنَّ مُعظم مَنْ أعرفهم من

الرجال الآخرين -خاصّة إذا تصادفَ أن التقينا وفي صحبتي إحدى فتياتي الشابات- إمّا أنْ يحكموا عليّ بصمت أو يعِظوني جهاراً. يُخبرونني بأنني «رجل محدود القُدرات» -وهم الذين ليسوا محدودي القُدرات. ويمكن للوعّاظ أنْ يُصابوا بالجنون عندما لا أعترف بحقيقة حججهم. يقولون لي إنني «مُعتدّ بنفسي»- وهم الذين ليسوا مُعتدين بأنفسهم. والمُعذَّبون بينهم لا يريدون، طبعاً، أيَّ جزء مني. وحتماً لم يحدث مرَّة أنْ صارحني المتزوجون بأسرارهم. إذ ليس بيننا أي قدر من التواصل الروحيّ. ربما يحتفظون بأسرارهم فيما بينهم، على الرغم من أنني لستُ متأكداً من ذلك - لا أعلم إنْ كان التضامن الذكوريّ يمتدّ طويلاً هذه الأيام. إنَّ نزعتهم البطوليّة لا تكمن فقط في تحمُّل نكرانهم اليوميّ لذواتهم برزانة بل في المُثابرة على تقديم صورة زائفة لحياتهم. أما حياتهم الحقيقيّة، الحياة المُخبّأة، فيوفرونها فقط لأطبائهم النفسيين. أنا لا أدّعي أنهم جميعاً عِدائيون ويكنّون لي الشر بسبب أسلوبي في عيش حياتي، ولكن من الأسلم أنْ أقول إنني في العموم لا أفرِض الإعجاب بي. وبعد وفاة جورج، تحوَّل تضامني بالكامل إلى نساءٍ على غرار إيلينا كنَّ ذات يوم عشيقاتي. إنهن لا يستطعن أنْ يُقدِّمن لي ما كان يجمعني بجورج، ولكن يبدو أنني لا ألحّ في المُطالبة بتحمّلهن.

كم كان عمره؟ كان جورج في الخامسة والخمسين. مات بالسكتة الدماغيّة. جورج أُصيبَ بالسكتة الدماغيّة كنتُ حاضراً عندما أُصيبَ بها. وكذلك شهدها حوالي ثمانمائة شخص آخرين. وقع ذلك في ليل يوم سبت من شهر أيلول في 92 شارع Y. كان يوشك أنْ يُقدِّم إحدى قراءاته. وكنتُ أقفُ عند المِقرأ لكي أُقدّمه. كان جالساً على كرسيّ خارج خشبة المسرح مباشرة، في الأجنحة، يستمتع بتقديمي له ويهزّ رأسه استحساناً. تمدَّدت الساقان الطويلتان، النحيلتان لجسد جورج المرن، ببذلته الضيّقة الشبيهة ببذلة الحانوتي، الأيرلندي القاتم النحيل ذي الأنف المعقوف. من الواضح أنّه أُصيب بالسكتة الدماغيّة بينما كان جالساً هناك ودواوينه الشِعريّة الستة متراكمة على حِجره، في انتظار أنْ يقترب، بردائه الأسود الكئيب، وينتزع إعجاب الجمهور. لأنه حالما بدأ الجمهور بالتصفيق وأوشك أنْ ينهض، سقطَ عن الكرسيّ وأصبح الكرسي فوقه. تناثرت الكتب على أرجاء

الأرضيّة. ولم يعتقد الأطباء أنّه سوف يُغادر المستشفى، لكنّه بقيَ غائباً عن الوعي هناك مدة أسبوع، ومن ثم نقلته العائلة إلى المنزل لكي يموت هناك.

في المنزل أيضاً ظلَّ غائباً عن الوعي معظم الوقت. غادر مع شلل نصفيّ، وحبال صوتيّة مشلولة، وجزء كبير من دماغه مُدمَّر. ابنه توم طبيب، وأشرفَ على احتضاره الذي استمرّ تسعة أيام أُخَر. نزع الأنابيب، وأزال القسطر، وجرّده من كل شيء. وعندما كان جورج يفتح عينيه، كانوا يرفعونه ويعطونه جرعة من الماء وقطعة من الثلج لكي يمتصّها. وفيما عدا ذلك كانوا يُبقونه في وضعيّة مُريحة قدر الإمكان وهو يموت ببطء مؤلِم.

بعد ظهيرة كل يوم كنتُ أقود السيارة إلى بيلام لكي أزوره. كان جورج قد انفصلَ عن العائلة في بيلام لكي يكون، طوال كل تلك السنين التي مارس فيها التدريس في مدرسة نيو سكول، حرّاً في مانهاتن. وأحياناً لدى وصولي كنتُ أجد خمس سيارات أو ستاً متوقفة في الممر. وكان الأولاد يتواجدون هناك بنوبات، وأحياناً مع أحد أحفاده. كانت هناك ممرضة وأيضاً، مع اقتراب النهاية، أحد النزلاء الفقراء. وطبعاً كانت كيت، زوجة جورج، تتواجد هناك على مدار الساعة. فألج غرفة النوم، حيث وضعوا سرير المستشفى، وأُمسكُ يده، اليد التي ما زال فيها بعض الحسّ، وأجلس معه خمسة عشر أو عشرين دقيقة، لكنّه يكون دائماً غائباً عن الوعي، مع أنفاس ثقيلة، وأنين. والساق السليمة ترتعش بين حينٍ وآخر، ولكن لا أكثر من ذلك. وأمرِّرُ يدي على شعره، وألمس وجنته، وأشدّ على أصابعه، ولكن بلا أيّة استجابة. أجلسُ هناك آملاً في أنْ يستعيد وعيه ويتعرَّفَ عليّ، ومن ثم أرجع بالسيارة إلى المنزل. وبعد ظهيرة أحد الأيام وصلتُ فأخبروني بأنَّ الأمر قد حصل - واستيقظ. وقالوا لي، ادخل، ادخل.

كانوا يسندون جورج إلى الوسائد ويرفعون السرير قليلاً، وتقوم ابنته بتي بإطعامه قطعة الثلج، تكسر قطعة الثلج بأسنانها ومن ثم تضع القِطع المكسورة داخل فمه. كان جورج يُحاول أنْ يعضّ عليها بأسنانه على جانب فمه الذي ما زال يعمل. بدا أنَّ حالته قد تدهورتْ حقاً، أصبح شديد النحول، لكنَّ عينيه كانتا مفتوحتين، وها هو ذا، يستخدم كل ما تبقّى لديه من قُدرة على التركيز لكي يمضغ قطع الثلج تلك. ووقفتْ كيت عند مدخل الباب تراقبه، امرأة

مهيبة بيضاء الشعر يكاد طول قامتها يُعادل طول قامة جورج، لكنّها أضخم جثّة مما شاهدتُها آخر مرّة، وأشدّ إرهاقاً بكثير. كانت استدارة جسمها جذّابة، ويبدو عليها الاستياء، والمرونة، وتشع ما يشبه القوة العنيدة - تلك كانت كيت التي تجاوزت منتصف العمر. امرأة لم يُعرَف عنها أنّها انسحبتْ من الواقع، وبدت الآن مُدمَّرة تماماً، كأنها خاضَتْ آخر معاركها وخسرتها.

جلبَ توم قطعة قماش مُبلّلة من الحمّام. قال «أترغب في الاغتسال، يا أبي؟»، سألتُ توم، «ما مدى إدراكه؟ إلى أي مدى يفهم؟»، قال توم «أحياناً يبدو كأنّه يفهم قليلاً. ومن ثم يبدو أنّه لا يفهم»، «منذ متى وهو يقظ؟»، «منذ حوالي نصف ساعة. اقتربْ منه. كلّمه، يا ديفيد. يبدو أنّه يستمتع بسماع الأصوات»

يستمتع؟ كلمة غريبة. لكنَّ توم، في الأوضاع كلها، هو الطبيب المرح. اقتربتُ من جانب جورج غير المشلول بينما كان توم يمسح وجه والده بقطعة القماش المُبلّلة. فأخذها جورج منه -أمام دهشة الجميع، مدّ يده السليمة، وقبض على قطعة القماش، وشدّ عليها، ثم حشرها داخل فمه. قال أحدهم «إنّه يشعر بجفاف شديد». دفع جورج طرف قطعة القماش إلى داخل فمه وبدأ يمتصّها. ثم أخرجها، كان هناك شيء مُلتصق بها، أشبه بقطعة من حنكه الليّن. شهقتْ بتي عندما رأته، وربتت المرأة الزائرة من المستشفى التي كانت داخل الغرفة أيضاً على ظهر بتي قالت «لا شيء يستحق الذِكر. إنّه يشعر بجفاف شديد في فمه- إنها مجرد قطعة صغيرة من اللحم»

كان فمه مُنحرفاً ومفتوحاً، ذلك الفم الملتوي لشخص يحتضر، لكنَّ عينيه كانتا تتركّزان وبدا أنَّ هناك شيئاً خلفهما، شيئاً لم يتقوَّض بعد من جورج. كالجدار الذي بقيَ قائماً ومتقلقلاً بعد انفجار قنبلة. وبقوة الغضب نفسها التي قبض بها على قطعة القماش، رفع الغطاء الذي كان يستره وبدأ يشدّ رباطاً عند زاوية حفاضه، مُحاولاً أنْ ينزعه، ويكشِف عن ذينك العودين المُثيرين للحزن واللذين هما ساقاه. عندما أُضيء المُصباحان -هذا ما ذكّرتني ساقاه به. كل شيء فيه، كل ما يتألَّف من لحم ودم، ذكّرني بشيءٍ آخر لا حياة فيه. قال توم «كلا، كلا، اتركه، يا أبي، لا بأس». لكنَّ جورج لم يتوقف. وأخذ يشدّ بغضب، مُحاولاً عبثاً أنْ يخرج من الحفاض. وعندما لم ينجح، رفع يده وأشار بغضب إلى بتي، مُصدِراً ما يُشبه الزئير. سألته «ماذا؟

أنا لا أفهمك. ماذا تريد؟ ما الأمر، يا حبيبي؟» كانت الأصوات التي يُصدرها مُبهمة، لكنَّ إيماءاته كانت واضحة وتفيد بأنّه يريد منها أنْ تقترب منه قدر الإمكان، وعندما فعلتْ، مدَّ يده وأحاط ظهرها بذراعه وشدّها إلى الأمام لكي يتمكّن من تقبيل فمها. قالت «أوه نعم، أبي، نعم، أنت أفضل والد، أفضلهم جميعاً». والمُذهل في الأمر هو أنَّ هذه القوة ظهرتْ فيه بعد مرور أيام طويلة من الاستلقاء في مكانه لا يُبدي أيّة حركة ومن الهزال، ونجحَ بصورة ما من الصمود بينما يبدو أنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة- القوة الهائلة التي شدَّ بها بتي إليه وحاول أن يتكلَّم. قلتُ في نفسي، ربما ينبغي ألّا يسمحوا له بالموت. ماذا لو أنّ لديه من القدرة على الحياة أكثر مما يعلمون؟ ماذا لو أنَّ هذا ما يُحاول شرحه؟ ماذا لو أنّه بدل أنْ يودّعهم كان يقول «لا تتركوني أرحل. افعلوا أقصى ما في وسعكم لإنقاذي»؟

ثم أشار جورج إليّ. قلت «مرحباً، جورج. مرحباً، يا صديقي. أنا ديفيد، يا جورج». وعندما اقتربتُ منه، تمسّك بي بقوة كما فعل مع بتي وقبّلني *أنا* على فمي. لم أشمّ منه رائحة الموت، ولا عفونة المرض، ولا أي نوعَ من الروائح الكريهة وشعرتُ فقط بأنفاس دافئة، بلا أيّة رائحة مُميَّزة، عِطر الوجود، والشفتين الجافتين. كانت تلك المرة الأولى في حياتنا أنا وجورج التي نتبادل بها القُبل، زمجر من جديد وأشار هذ المرَّة إلى توم. إلى توم ومن ثم إلى قدميه هو، اللتين كانتا مكشوفتين في آخر السرير. وعندما ظنَّ توم أنَّ جورج يريد أنْ يُغطي ساقيه من جديد، بدأ يُعدِّل من شأن السرير، فزمجر جورج بصوت أكثر ارتفاعاً وأشار من جديد إلى قدميه. قالت بتي «إنّه يريد منكَ أنْ تُمسك بهما»، قال توم «إحداهما لا يستطيع حتى أنْ يشعر بها»، قالت بتي، «أمسك الأخرى»، «حسن، أبي، فهمت - فهمتك» وبدأ توم بصبر يدعك القدم التي يشعر بها.

بعد ذلك أشار جورج إلى الباب حيث تقف كيت، تُراقب ذلك كلّه. قالت بتي «إنّه يُريدك، يا أمي». ابتعدتُ لأفسح المجال لكيت أنْ تقترب وتقف حيث كنتُ أقف، بجوار السرير، وهنا مدّ جورج يده نحوها، وشدّها بذراعه السليمة نحوه، وقبّلها بقوة كما كان قد فعل مع بتي ومعي. وقبّلته كيت بدورها. ثم تبادلا القُبل من جديد، هذه المرّة قُبلة طويلة، قبلة كّلها

شغف. بل إنَّ كيت أغمضتْ عينيها. إنها بعيدة كل البُعد عن السلوك العاطفيّ، وواقعيّة، ولم أكنْ قد رأيتها من قبل تفعل شيئاً جديراً بفتاة هكذا.

في تلك الأثناء، كانت يد جورج السليمة قد غادرت ظهرها وانتقلتْ إلى ذراعها اليمنى، وبدأ يعبث بزرّ رسغ بلوزتها. كان يُحاول أُنْ يحلّه. همستْ كيت بنعومة «جورج». بدتْ مستمتعة. «جورجي، جورجي...»، «ساعديه، ماما. إنّه يريد أنْ يحلّ الزرّ». استسلمتْ كيت وهي تبتسم لتعليمات ابنتها المتأثّرة، وحلَّتْ الزرّ، لكنَّ جورج كان عندئذٍ قد انتقل إلى الكُم الثاني، وأخذ يشدّ *ذلك* الزرّ، ولذلك اضطرَّتْ إلى حلّه أيضاً. وطوال ذلك الوقت ظل ينهال بنهم على شفتيها. وداعبتْ كيت وجهه المُشوّه، ذلك الوجه الغائر، الذي يُعبِّر عن وحدةٍ هائلة، وقبّلتْ شفتيه في كل مرَّة قدَّمهما لها، ثم ارتقتْ يده عالياً نحو أزرار مُقدِّمة بلوزتها وباشر بالعبث بها.

كانت خطّته واضحة. كان يحاول أنْ ينزع عنها ملابسها، أنْ ينزع ملابس هذه المرأة التي، حسب عِلمي، وكما يعرف الأطفال بيقين، لم يلمسها في السرير منذ سنين طويلة. بل لم يعُد يلمسها قط. قالت بتي «دعيه يفعل، يا أمي»، ومن جديد نفَّذَتْ كيت ما طلبته ابنتها منها. ومدَّتْ يدها إلى أعلى وساعدتْ جورج في حلّ أزرار مُقدّمة بلوزتها. وهذه المرّة عندما تبادلا القُبل، كانت يده السليمة تقبض على قماش صدريتها الكبيرة. ولكن، بسرعة، انتهى ذلك كلّه. خارتْ قِواه فجأة، ولم يصل قط إلى ثدييها المتدليين. وبقيَ على قيد الحياة على مدى الساعات الاثني عشرة، ولكن عندما سقط على ظهره واستند إلى الوسائد، فغر فاه، وأغمضَ عينيه، وأخذ يتنفّس كشخصٍ انهارَ في نهاية سباقٍ للجري، وعلِمنا جميعاً أنَّ ما شهدنا كان آخر فصل مُذهل من حياة جورج.

لاحقاً، عندما توجهتُ نحو الباب لكي أغادر، خرجت كيت إلى الشرفة الأماميّة وسارتْ معي على الممشى نحو سيارتي. أمسكتْ كلتيّ يديّ بيديها وشكرتني على مجيئي. قلتُ «سعدتُ بحضوري إلى هنا ومُشاهدة ذلك كلّه»، قالت كيت، «نعم، كان مشهداً استثنائيّاً، أليس كذلك؟»، ومن ثم أضافت مع ابتسامة مُرهَقَة، «أتساءل مَنْ كان يُظنني»

***

لم يكن قد مضى أكثر من خمسة أشهر على رحيل جورج عندما اتّصلتْ كونسويلا وتركت رسالتها -«أريد أنْ أخبركَ شيئاً. وأريد أن أخبرك به بنفسي، قبل أنْ تسمعه من شخص آخر»- حسن، كما قلتُ، أصغيتُ إلى الرسالة مُعتقداً أنَّ خطباً وقع *لها*. وهذا النوع من الأشياء، الحلم المُنذِر الذي يتبعه تحقّقه، هو حلمٌ غريب بين أحلام المرء، ولكن ماذا عن الحياة الواقعيّة؟ لم أعلم ماذا أفعل. هل أتّصل بها وأردّ عليها؟ وبقيتُ أفكّر في الأمر على مدى خمس عشرة دقيقة. ولم أتّصل بها لأنني خفتُ أنْ أفعل. لِمَ اتّصلتْ بي هاتفيّاً؟ ما الأمر؟ إنَّ حياتي خالية من المشاكل وعدتُ إلى التحكّم فيها. هل أتّصِف بالمرونة الكافية لأتعامل مع كونسويلا ومع استسلامها العدوانيّ؟ أنا لم أعُد في الثانية والستين - أنا في السبعين. هل أستطيع أنْ أتحمّل وأنا في هذه السن ذلك الهوس بالشك؟ هل أجرؤ على الانزلاق إلى النشوة المسعورة؟ أيمكن أنْ يكون هذا مفيداً لعمري المديد؟

تذكّرتُ كيف كانت، على امتداد ثلاثة أعوام بعد فقداني لها، حتى عندما أستيقظ ليلاً لكي أتبوَّل، هي كل ما أُفكِّر فيه: حتى في الساعة الرابعة صباحاً، وأنا واقف في المرحاض وشبه نائم: حتى القليل مما تبقّى لديّ من يقظة يبدأ بنطق اسمها. في العموم عندما يتبوّل رجل عجوز ليلاً فإنَّ عقله يكون خالياً تماماً. وإذا كان قادراً على التفكير في أي شيء، فهو في كيف يعود إلى السرير. لكنَّ هذا لم يحدث معي، ليس حينئذٍ. دائماً «كونسويلا، كونسويلا، كونسويلا» كلما نهضتُ لكي أتبوّل. وأؤكّد لك أنَّ هذا ما فعلته بي، من دون لغة، ومن دون تفكير، ومن دون مكر، ومن دون أدنى قدر من الضغينة، ومن دون الأخذ بعين الاعتبار السبب والأثر. على غرار رياضيّ عظيم أو عمل فنيّ في النحت يمثّل فكرة مثاليّة أو حيوان لُمِحَ في الغابة، على غرار مايكل جوردان، أو ميّول[1]، أو بوم، أو حيوان الوشق، كانت تفعل ذلك ببساطةٍ فخامةٍ جسديّة. لم يكن في كونسويلا أدنى قدر من الساديّة. ولا حتى ساديّة اللامبالاة، التي كثيراً ما تتماشى مع تلك الضخامة المثاليّة. لقد كانت أشدّ توازناً من أنْ تتلاءم مع تلك القسوة وأشدّ ودّاً بكثير. ولكنْ

1- أرستيد ميول (1961-1944): نحّات فرنسيّ، خاصة لنساء عاريات. - المترجم

تخيّل كيف كان يمكن أنْ تجعل مني ألعوبة لو لم تكن فتاة ذات تنشئة حَسَنَة ولا يمكن أنْ تستغل إلى آخر مدى ما وُهِبَتْ من قوة هائلة؛ تخيّل لو أنّها تنطوي على ضمير امرأة بدائيّة بالإضافة إلى الإحاطة الفنيّة المثاليّة بالأثر الذي تتركه. ولحُسن الحظ، وكغالبيّة الناس، لم تكن متعوّدة على تقليب التفكير في الأشياء، وعلى الرغم من أنّها جعلتْ كل ما جرى بيننا يحدث، فإنها لم تفهم قط ما حدث. ولو أنها فهمتْ، لو أنّها، أيضاً، تتمتّع بأدنى قدر من حب تعذيب الذَكَر المُضطرب بالشهوة، لهلكتُ، وتحطّمتُ تماماً على يد حوتي الأبيض.

ولكن ها هي من جديد. كلا، لن تفعل ذلك أبداً! لن تُغير من جديد على هدوء بالي!

ولكن بعد ذلك قلتُ في نفسي، إنها تبحثُ عني، وتحتاج إليّ، ليس كعاشِق، وليس كأستاذ مدرسة، ليس من أجل استئناف حكايتنا الجنسيّة بتوليفة جديدة. وهكذا اتصلتُ بها على هاتفها الخليويّ وكذبتُ وقلتُ إنني ذهبتُ إلى المتجر ورجعتُ توّاً، فقالت، «أنا في السيارة. كنتُ أمام المبنى الذي تُقيم فيه عندما تركتُ لك الرسالة». قلتُ «ماذا تفعلين بالتجوّل بالسيارة في أرجاء نيويورك عشيّة رأس السنة؟»، قالتْ «لا أعلم ماذا أفعل»، «أتبكين، يا كونسويلا؟»، «كلا، ليس بعد»، وقلت «هل قرعتِ جرس الباب؟»، فقالت «كلا، لم أفعل، لأنني لم أجرؤ على ذلك»، «تستطيعين دائماً أنْ تقرعي الجرس، دائماً. تعلمين هذا. ما الأمر؟»، «أحتاج إليك الآن»، «إذن تعالي»، «هل لديك فُسحة من الوقت؟»، «دائماً لديّ فُسحة من الوقت لأجلك. تعالي»، «لديّ أمرٌ هامّ. سوف آتي في الحال».

تركتُ سمّاعة الهاتف ولم أعرف ماذا أتوقَّع. وبعد مرور حوالي عشرين دقيقة، توقفتْ سيارة، وحالما فتحتُ الباب لها علِمتُ أنَّ ثمة خطباً. لأنها كانت تعتمر قلنسوة أشبه بالطربوش. ولم يكن ذلك من عادتها. كان لها شَعرٌ أسود فاحم، شعر أملس تعتني به دائماً، تغسله دائماً، وتسرّحه بالفرشاة، وتمشّطه؛ كانت تزور الحلّاق مرة كل أسبوعَين. أمّا الآن فهي تقفُ أمامي تعتمر طربوشاً. وترتدي أيضاً مِعطفاً أنيقاً، معطفاً فارسيّاً أسود من صوف الحَمَل يصل حتى الأرض مع حزام، وعندما حلّت الحزام، رأيتُ تحت

معطفها قميص الحرير ذا الشقّ - جميل. عانقتُها وعانقتني، وسمحتْ لي بأخذ معطفها، وقلت «هاتي قبعتك؟ أم طربوشك؟»، فقالت «الأفضل ألّا تفعل هذا، سوف تكون المُفاجأة صادمة»، قلتُ «لِمَ؟»، فقالت «لأنني مريضة جداً»

دخلنا غرفة الجلوس، وهناك عانقتها من جديد، اندفعتْ بجسدها نحوي، فشعرتُ بحلمتيها، بحلمتيها الجميلتين، ورأيتُ من خلفها كفليها الجميلين. رأيتُ جسدها الجميل. إنها الآن في ثلاثينيات عمرها، في الثانية والثلاثين، وجمالها لم يقلّ بل ازداد، وأصبح وجهها، الذي بدا بصورة ما أنّه استطال قليلاً، أكثر أنوثة بكثير - وقالت لي «لم يعد لديّ أي شعر. في شهر تشرين الأول، قيل لي إنّني مُصابة بالسرطان. سرطان الثدي». قلت «هذا فظيع، رهيب، كيف تشعرين، كيف يمكن التعامُل مع شيءٍ كهذا؟». كان علاجها الكيميائيّ قد بدأ في أوائل شهر تشرين الثاني، وسرعان ما فقدتْ شعرها. قالت «يجب أنْ أخبرك القصّة»، وجلسنا وقلتُ، «أخبريني كل شيء»، «في الواقع، كانت خالتي، أخت أمي، قد أُصيبَتْ بسرطان الثديّ، وتلقّت العلاج، وفقدتْ أحد ثدييها. لذلك أعلمُ أنَّ الخطر يسري في عائلتي. لطالما علمتُ هذا، ولطالما انتابني الخوف من ذلك»، وبينما هي تتكلَّم، فكّرت، ما أجملك، أنتِ وأروع حلمتين في العالم. قالت، «وصباح ذات يوم كنتُ واقفة تحت الدشّ، فشعرتُ بشيء تحت إبطي، وأدركتُ أنَّ ذلك شيء لا يُطمئن. ولجأتُ إلى طبيبي فقال إنّه ربما ليس هناك ما يستحق القلق بشأنه، وذهبتُ إلى طبيب ثانٍ ثم ثالث، وأنتَ تعرف القصّة وقال الطبيب الثالث إنّه ***فعلاً*** شيء يُثير القلق»، فسألتُها «هل أصابك الرعب؟ هل خفتِ، يا صديقتي العزيزة؟». واضطربتُ، وانتابني ***أنا*** الخوف. قالت «نعم، خوف هائل»، «ليلاً؟»، «نعم، كنتُ أركض في أرجاء شقّتي. أصبحتُ مجنونة تماماً». عندما سمعتُ هذا بدأتُ أبكي، وتعانقنا من جديد، وقلت «لِمَ لمْ تتّصلي بي؟ لِمَ لمْ تتصلي بي حينئذٍ؟»، كرّرت القول «لم أجرؤ». قلت «بمَنْ فكّرتِ في الاتّصال؟؟»، فقالت «بأمي، طبعاً. لكنني علِمتُ أنها سوف تخاف هي أيضاً، لأنني ابنتها، ابنتها الوحيدة، ولأنها عاطفيّة، ولأنَّ الجميع ماتوا. لقد ماتوا جميعاً، يا ديفيد»، «مَنْ الذي مات؟»، «والدي مات»، «كيف؟»، «تحطّمت

طائرته. وكان على متنها متوجهاً إلى باريس. كان في رحلة عمل»، «أوه، لا»، «نعم»، «وماذا عن الجدّ الذي أحببتِهِ حبّاً جمّاً؟»، «مات. قبل ست سنوات. بدأ الأمر بفقدانه. بنوبة قلبيّة»، «وجدّتك، صاحبة السبحات؟ الجدّة التي كانت الدوقة؟»، «هي أيضاً ماتت. بعده. كانت عجوزاً وماتت»، «لا تقولي إنَّ أخاك الصغير-؟»، «كلا، كلا، إنه بخير. لكنني لم أستطع أنْ أتّصل به، ليس بهذا الشأن. لم يكن ليستطيع التعامل معه. وهنا فكّرتُ فيك. لكنني لم أكنْ أعلم إنْ كنتَ وحدك»، «هذه ليستْ مشكلة. عديني الآن بشيء واحد. إذا بدأ الخوف ينتابك ليلاً، أو نهاراً، أو في أي وقت، اتصلي بي. سوف آتي إليك دائماً»، ثم قلت «خذي، دوّني عنوانك. دوّني أرقام هاتفك كلها، في مركز العمل، والمنزل، وفي كل مكان». قلتُ في نفسي، إنها تحتضر أمام عينيّ، هي أيضاً تحتضر الآن. كان يكفي أنْ يتسلّل الاضطراب إلى حياتها العائليّة الكوبيّة الآمنة بموتٍ متوقَّعٍ لجدٍّ حبيبٍ عجوز حتى يتدفّق بسرعة سوء الحظ ويتراكم على شكل مرض السرطان.

قلت «هل أنتِ خائفة الآن؟»، فقالت «بل خائفة جداً، جداً. إنني أتحسّن مدّة دقيقتين وأنا أفكّر في أمرٍ آخر، ومن ثم يغوصُ شيءٌ داخلي ولا أصدق ما يحدث. الأمر أشبه بمركبة السكّة الأفعوانيّة، لا تتوقّف إلّا إذا توقف انتشار *السرطان*»، ثم قالت «وفُرصي هي ستون في المائة للنجاة وأربعون في المائة للموت». ومن ثم انهمكتُ في الحديث عن قيمة الحياة ورثتُ لحال أمّها، قبل أي شيء - الكلام المُبتذل الذي لا بد منه. أردتُ أنْ أفعل أشياء كثيرة. وكانت لدي خُطط كثيرة، وما إلى ذلك. وبدأتْ تُخبرني كم تبدو هواجسها الصغيرة التي انتابتها خلال الأشهر القليلة الأخيرة تافهة، هواجس عن العمل والأصدقاء والملابس، وكيف أن ذلك وضع الأمور في نصابها، وقلتُ في نفسي، كلا، لا شيء وضعَ أيّ شيء في نِصابه.

راقبتُها، وأَصغيتُ إليها، وعندما لم أعد أُطيق سماع المزيد، قلت «أتسمحين لي بلمس ثدييك؟»، فقالتْ «نعم، تفضّل»، «ألا تمانعين؟»، «كلا، لا مانع لديّ حتى في تقبيلك، لأنني لا أريد أي تصرُّف جنسي. لكنني أعلم كم تحب ثدييّ، هيّا المسهما»، وهكذا لمستهما - بيدين مُرتعشتين. وطبعاً مع حدوث انتصاب. قلت، «أهو ثديك الأيسر أم الأيمن» فقالت «إنه

الأيمن»، وهكذا وضعتُ يدي على ثديها الأيمن. هناك مزيج من الإحساس الجنسيّ والرقّة، يجعلك تشعر بأنك تذوب وبالإثارة، وهذا ما حدث. يحدث لديك انتصاب وتذوب، يحدث الأمران معاً. وهكذا جلسنا هناك وثديها في يدي، وتحدثنا، قلتُ «ألا تمانعين؟»، فقالت «بل إنني أريد المزيد منك. لأنني أعلم أنكَ تحبّ ثدييّ». قلت «سأفعل ذلك. حسن. ولكن لاحقاً، سوف نفعل ذلك لاحقاً»

حدث الأمر سريعاً جداً. لم أكنْ مُستعداً له. تمشّينا، وطفقَتْ تبكي، حاولتُ أنْ أواسيها، ومن ثم كفَّتْ فجأة عن البكاء وأصبحت شديدة الحيوية، شديدة التصميم. قالت لي «في الحقيقة يا ديفيد، لقد أتيتُ إليك مع طلبٍ واحد، وسؤال واحد»، قلتُ «ما الأمر؟»، فقالتْ «بعدك، لم يعد لديّ أي صديق أو عشيق يُحبّ جسدي بقدر حبّك له»، «هل كان لديك أصدقاء؟»

عُدنا إلى الموضوع من جديد. دعكَ من الأصدقاء. لكني لم أستطع. «أكان لديك أصدقاء، يا كونسويلا؟»، «نعم، ولكن ليسوا عديدين»، «هل ضاجعتِ رجالاً بصورة مُنتظمة؟»، «كلا، ليس بانتظام»، «كيف وجدتِ عملك؟ ألم يقع أحدٌ من رفاقك في العمل في حبّك؟»، «كلهم»، قلتُ «أتفهّم هذا. ولكن ماذا بعد. أكانوا كلهم من المثليين؟ ألم تقابلي رجالاً أسوياء؟»، «أقابل، وقابلتُ، لكنهم ليسوا بارعين»، «لِمَ تقولين إنهم ليسوا بارعين؟»، «كانوا يكتفون بالاستمناء على جسدي»، «حسن، هذا أمر يؤسَف له. تصرّف أحمق، ومجنون»، «أما أنتَ فأحببتَ جسدي، وأنا كنتُ فخورة به»، «لكنكِ كنتِ فخورة به من قبل»، «نعم ولا. لقد شاهدتَ جسدي وهو في أبهى حالاته. لذلك أردتُ لك أنْ تشاهده قبل أنْ أُدمَّر جرّاء ما سيفعله الأطباء به»، «كفاكِ كلاماً بهذه الطريقة، ولا تفكّري هكذا. لا أحد سوف يُدمّرك. ماذا يقول الأطباء إنهم سيفعلون؟»، قالتْ، «لقد تلقيت العلاج الكيميائيّ. لهذا لم أخلع قلنسوتي»، «طبعاً. ولكن في استطاعتي أنْ أتحمّل أي شيء يتعلّق بك. افعلي ما تشائين». قالت «كلا، لا أريد أنْ أُريكَ رأسي، لأنَّه بعد تلقّي العلاج الكيميائي يحدث أمر غريب للشَعر، يبدأ بالتساقُط بكميات كبيرة. ويبدأ شعر جديد بالنمو. شيء غريب جداً»، سألتها «هل يتساقط شعر العانة؟»، قالتْ «كلا، لا يتساقط، بل يبقى. وهذا أيضاً أمرٌ

غريب»، قلت «هل سألتِ الطبيبة عن ذلك؟»، قالت «نعم، والطبيبة أيضاً ليس لديها تفسير. وتكتفي بقول «هذا سؤال وجيه»»، ثم قالت كونسويلا، «انظر إلى ذراعيَّ». كانت ذراعاها طويلتين وبشرتها ناصعة البياض، والشعر الجميل على ذراعيها لا يزال موجوداً. قالت «انظر، هناك شَعر على ذراعيّ لكن لا شعر على رأسي». قلت «حسن، أنا أعرف رجالاً صُلعاً فلِمَ لا أرى نساء صُلعاً؟»، قالتْ «كلا. لا أريد لك أنْ تراه»

ثم قالتْ، «ديفيد، هلّا قدَّمتَ لي معروفاً كبيراً؟»، «طبعاً. اطلبي أي شيء»، «هلّا ودّعتَ ثدييّ»، قلت «يا فتاتي العزيزة، يا حبيبتي، لنْ يُدمّروا جسمك، لن يفعلوا»، «حسن، أنا محظوظة لأنَّ لديّ ثديين ضخمين، لكنهم سوف يُضطرون إلى بتر حوالي ثُلثهما. وطبيبتي تُحاول أنْ تبذل أقصى جهدها لجعل العمليّة الجراحيّة ضمن أضيق الحدود. إنها شفوقة. ورائعة. وليست سفّاحة. ليست آلة بلا قلب. تحاول أولاً أنْ تُقلِّص السرطان بالعلاج الكيميائيّ، ثم عندما يُجرون العمليّة الجراحيّة يستطيعون أنْ يجتثّوا أقلّ قدرٍ ممكن»، «ولكن يمكن أنْ يستعيدوه، أنْ يُعيدوا بناءه، أليس كذلك، مهما كان ما يجتثون؟»، «نعم، ويمكنهم أنْ يُضيفوا بعضاً من مادة السيليكون. لكنني لا أعلم إنْ كنتُ أرغبُ في ذلك، لأنَّ هذا جسمي وبعد العمليّة لن يكون جسمي. لن يكون أيَّ شيء»، «وكيف تريدين مني أنْ أودّعه؟ ماذا تريدين؟ ماذا تطلبين مني، يا كونسويلا؟»، وأخيراً أخبرتني.

كنتُ أحمل معي آلة التصوير، من ماركة لايكا مُزوّدة بعدسة للقطات المُقرَّبة، ونهضَتْ واقفة. أسدلنا الستائر، وأضأنا المصابيح كلّها، وعثرتُ على المقطوعة المناسِبة لشوبيرت وأدرتُها، وما قامت به حينئذٍ لم يكن رقصاً، بل أشبه بحركات شرقيّة، أجنبيّة، وهي تخلع ملابسها. حركات شديدة الأناقة والإغراء. كنتُ جالساً على الأريكة، وكانت واقفة تتجرّد من ملابسها. وأسلوب خلعها ملابسها ورمي كل قطعة منها، كان مُذهلاً. أسلوب ماتا هاري. الجاسوسة التي تتعرّى أمام الضابط. وطوال الوقت كانت مُغرية إلى أقصى مدى. خلعتْ أولاً بلوزتها. ثم حذاءها. كان خلعها حذاءها حينئذٍ شيئاً خارقاً. ثم خلعت صدريتها. كأنَّ رجلاً تعرّى ونسيَ أنْ يخلع جوربه، فبدا مثيراً للسخرية قليلاً. بالنسبة إليّ لم يكن مشهد امرأة ترتدي تنورتها

وثدياها عاريان مُثيراً جنسيّاً. كانت التنورة تُشوّش الصورة قليلاً. إنَّ ثديين عاريين مع بنطلون مشهد مُثير حقاً، أما فوق تنورة مباشرة فليس مُثيراً البتّة. من الأفضل الاحتفاظ بالصدريّة والتنورة، أمّا التنورة وحدها مع ثديين عاريين فمشهد مُثير.

إذن عرضَت نفسها عليّ. تعرَّتْ إلى أنْ لم يتبقَّ غير سروالها الداخلي. قالت «هلّا لمستَ ثدييّ؟»، «أهذه هي اللوحة التي تريدين الظهور بها، وأنا ألمسهما؟»، «كلا، كلا. المسهما أولاً»، ففعلتُ. ثم قالت «أريد التقاط صور لهما وأنا أواجه آلة التصوير، ثم صور جانبيّة، ثم وهما يتدليان»

التقطتُ لها حوالي ثلاثين صورة. وهي التي اختارت الوضعيات، هي أرادتْ كل شيء. أرادتْ أنْ تضع يديها تحتهما، وهي تضمّهما معاً. أرادتْ مني أنْ أعصرهما. وأرادتْ التقاط صور لهما من الجانب الأيسر، ثم من الجانب الأيمن، وأرادتْ صوراً لهما وأنا أنحني إلى الأمام. وختاماً خلعت سروالها الداخليّ، واكتشفتُ أنَّ شعر عانتها موجود كما كان دائماً، كما وصفته: شعر ناعم، أملس. شعر آسيويّ. وبدا فجأة كأنَّ خلعها سروالها الداخلي ونظري إليها وهي عارية تماماً أثاراها. حدث ذلك فجأة. وأدركتُ من حلمتيها أنّها مُثارة جنسيّاً، على الرغم من أنني عندئذٍ لم أعُد مُثاراً. ومع ذلك، سألتها «أترغبين في قضاء الليلة هنا؟ أترغبين في مُضاجعتي؟»، قالتْ «كلا، لا أريد أنْ أضاجعك، ولكن أريد أنْ تضمّني بين ذراعيك». كنتُ بكامل ملابسي، كما أنا الآن. وكانت جالسة على الأريكة بين ذراعيّ، شديدة القُرب مني، ومن ثم أمسكت برسغي ووضعت يدي على إبطها لكي أتحسَّس موضع السرطان. شعرتُ كأنَّ هناك حجراً، حجراً تحت إبطها. كانا حجرين، واحد أكبر من الآخر، وهذا يعني أنَّ هناك بديلاً ينشأ في صدرها. لكنّني لم أستطع أنْ أشعر به على صدرها. سألتها «لِمَ لا أستطيع أنْ أشعر به على صدرك؟»، فقالت «إنَّ ثدييّ ضخمين. والأنسجة كثيرة ولا تستطيع أنْ تشعر به. إنّه مُتغلغل عميقاً داخل الصدر»

ما كان يمكن أنْ أُضاجعها، حتى أنا الذي لعقَ الدم عنها. بعد سنين عديدة من التفكير فيها، فإنَّ مجرد رؤيتها كان يمكن أنْ يكون شيئاً صعباً في الظروف العاديّة وليس بهذه الطريقة البائسة بصورة غريبة. لهذا، كلا، ما كان

يمكن أنْ أُضاجعها، ومع ذلك لم أتوقف عن التفكير في هذا. لأنَّ ثدييها غاية في الجمال، لا أستطيع أنْ أقول هذا كثيراً. قلت في نفسي - شيء خسيس، شيء مُخزٍ، لا يمكن أنْ يُدمّروا هذين الثديين، ثدييها! وكما قلت لك، كنتُ أستمني وأنا أفكر فيها طوال سنوات فراقنا الطويلة. وضاجعتُ نساء أُخريات، وفكّرتُ فيها، في ثدييها، وفي إحساسي وأنا أدفن وجهي فيهما. فكّرتُ في نعومتهما، وفي ملمسهما الأملس، وفي الطريقة التي يمكن أنْ أُخمّن وزنهما، وزنهما الخفيف، هذا كلّه بينما فمي يتمرَّغ في صدر امرأة أخرى. ولكن في تلك اللحظة أدركتُ أنَّ الجنس لم يعُد يطغى على حياتها. أصبح الخطر يتربّص بشيءٍ آخر.

لذلك قلتُ لها «هل أُرافقك إلى المستشفى؟ سأفعل إذا شئت. أنا أُصرُّ على ذلك. أنتِ وحيدة عمليّاً». فقالت إنها تريد أنْ تفكّر في الأمر. قالت «لطيفٌ منك أنْ تعرِضَ هذا، لكنني لا أعلم بعد. لا أعلم إنْ كنتُ أرغب في رؤيتك فور انتهاء العلاج». وغادرتْ عند الساعة الواحدة والنصف. لم تسألني ماذا سأفعل بالصور الفوتوغرافيّة التي طلبتْ مني أنْ ألتقطها. لم تطلب مني أنْ أرسل إليها نسخاً منها. لم أكن قد أظهرتها بعد. إنني مُشتاق إلى مُشاهدتها. سوف أُكبِّرها، وسوف أُرسِل إليها مجموعة منها، طبعاً. ولكن يجب أنْ أجد شخصاً أثقُ به لإظهارها. كان ينبغي أنْ أتعلَّم قبل زمن بعيد كيف أُظهِر الفيلم بنفسي، لكنني لم أفعل. كان ذلك سيفيدني.

يجب أنْ تتوجّه إلى المستشفى حالاً. أتوقَّع أنْ تصلني منها رسالة في أيّة لحظة، في أي يوم. ومنذ أنْ رأيتها قبل ثلاثة أسابيع، لم أسمع أي خبر عنها. هل سأسمع؟ أتعتقد أنني سوف أسمع؟ لقد طلبتْ مني ألّا أتّصل بها. لم ترغب في سماع المزيد عني - هذا ما قالتْ عندما غادرتْ. بقيتُ يقظاً ألازمُ جهاز الهاتف خشية أنْ يفوتني اتّصالها.

منذ زيارتها لي تلك، وأنا أواظب على الاتّصال بأناسٍ أعرفهم، بأطباء أعرفهم، أحاول أنْ أعرف شيئاً عن معالجة سرطان ثديها. لأنني كنتُ دائماً أعلم أنَّ الإجراء في مثل هذه الحالة هو إجراء عمليّة جراحيّة ثم المعالجة الكيميائيّة. وهذا ما كان يُقلقني في أثناء وجودها هنا -وبقيتُ أقول لنفسي، هناك في قضيتها شيء لا أفهمه. والآن علِمتُ أنَّ إجراء المعالجة الكيميائيّة

أولاً ليس أمراً غريباً جداً، وأنَّ ذلك يُصبح معيار العناية من أجل معالجة سرطان الثدي المتقدِّم موضعيّاً، لكن من الواضح أنَّ السؤال المطروح هو هل العلاج جيد من أجلها؟ ماذا كانت تعني بقولها إنَّ فرصة النجاة تبلغ ستين في المائة؟ لمَ ستون في المائة؟ هل هذا ما أخبرها به أحدهم أم قرأته في مكانٍ ما أم إنهَا، وسط نوبة ذعرها، اختلقَتْه؟ أم إنهم تراهنوا على بقائها حيّة طويلاً لأسباب تتعلَّق بالغرور؟ ربما هذا مجرد ردّة فعل للصدمة- ردّة فعل نموذجية لهذا الأمر - لكنني لا أستطيع أنْ أتوقّف عن التفكير في أنَّ هناك شيئاً في قصّتها، إمّا أنّها لم تُخبرني به أو أنّها هي نفسها لا تعرفه... على أيّة حال، تلك كانت القصّة، كما سمعتها، ولم أسمع المزيد حتى الآن.

***

غادرتني عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً، بعد أنْ وصل العام الجديد إلى شيكاغو. كنا قد شربنا الشاي، وشربنا كأساً من النبيذ. وتلبية لطلبٍ منها، فتحت جهاز التلفزيون، وتابعنا مشاهدة إعادة عرض بداية العام من أستراليا مروراً بآسيا ثم أوروبا. وأبدتْ بعض المشاعر العاطفيّة. وحكتْ قصصاً عن فترة طفولتها، وكيف كان والدها يأخذها إلى دار الأوبرا منذ أنْ كانت طفلة صغيرة. وحكت حكاية عن بائع أزهار. قالتْ، «كنتُ أشتري أزهاراً من جادة ماديسون مع أمي في يوم السبت الفائت، فقال بائع الأزهار، «ما أجمل قبعتك»، فقلتُ «إنني أعتمرها لسبب معيَّن» ففهمَ ما أقصد، واحمرّ خجلاً واعتذر وأعطاني حزمة من الأزهار مجاناً. وهكذا كما ترى ردّة فعل الناس على كائن بشريّ يمرّ بمحنة. إنهم يرتبكون. لا أحد يعلم ماذا يقول أو يفعل»، ثم قالت «لذلك أشعر بالامتنان لك»

ماذا كان شعوري؟ كان الألم المُبرح الذي انتابني في تلك الليلة جرّاء كونها وحيدة وخائفة في سريرها. خائفة من الموت. وماذا سيحدث الآن؟ ما رأيك؟ أعتقد أنّها لن تطلب مني أنْ أرافقها إلى المستشفى. لقد سُرَّتْ لأنني عرضتُ عليها ذلك، ولكن عندما يحين الوقت، سوف تذهب إلى المستشفى بمرافقة أمّها. كان يمكن أنْ تنضم إلى هرج عشيّة رأس السنة لأنها كانت من فرط البؤس والخوف بحيث لم تذهب إلى الحفلة التي دُعِيَتْ إليها ومن فرط البؤس والخوف بحيث لا تستطيع أنْ تبقى وحيدة.

لا أعتقد أنها سوف تتصل بي هاتفيّاً عندما سينتابها الخوف. لقد أرادتْ أنْ تسمع عرضي، لكنها لن تقبله.

إلّا إذا كنتُ مُخطئاً، إلّا إذا جاءتني، بعد مرور شهرين أو ثلاثة من الآن، وقالت إنها تريد أنْ تُضاجعني أنا وليس رجلاً أصغر سناً لأنني رجل عجوز وأبعد ما يمكن عن المثاليّة. تضاجعني لأنه، على الرغم من هذا الجانب من نضوب الحيويّة، لم تعُد الجثّة المتحلّلة مُستترة جيداً كما هو الحال مع الرجال الذين يترددون على القاعة الرياضيّة التي ألجأ إليها ونجحوا في ألّا يولدوا قبل أنْ يُصبح روزفلت رئيساً.

وهل سأتمكّن من فعل ذلك؟ إنني طوال حياتي لم أُضاجع امرأة بُتِرَ جزءٌ منها هكذا. أتذكَّر امرأة واحدة عرفتُها قبل سنين مضتْ، قالت لي، ونحن في الطريق إلى شقّتي، «يجب أنْ أخبرك -بسبب عمليّة جراحيّة أجريتها، لم يعُد لديّ إلّا ثديٌ واحد. لذلك لا أريد لك أنْ تُصدَم لهذا السبب». والآن مهما اعتقدتِ أنك لا تهابين شيئاً، وكنتِ صادقة، فإنَّ رؤية امرأة بثديّ واحد ليس مشهداً ممتعاً، أليس كذلك؟ واستطعتُ أنْ أُبدي القليل من الدهشة، ولكن ليس بشأن الثدي الواحد ظاهريّاً، ولا أعتقد أنني أبديتُ توتراً وأنا أحاول أنْ أُهدِّئ من روعها. أوه، كفى سُخفاً، لنْ نذهب إلى هناك كي نتضاجع؟ نحن مجرد صديقين مُخلصَين وأعتقد أننا يجب أنْ نبقى كذلك». وذات مرَّة ضاجعتُ امرأة لها بقعة بلون النبيذ القاتم المائل إلى البُنيّ- تقع بين ثدييها وجزئيّاً فوقهما، كانت وحمة كبيرة. كانت أيضاً ممشوقة القامة. ستة أقدام وخمس بوصات. وكانت المرأة الوحيدة ممَّن عرفتهنّ في حياتي التي تُقبِّل وهي تقفُ على أطراف أصابع قدَميّ وتشدّني إلى الأمام. وقد أُصِبتُ بتشنجّ في عنقي جرّاء تقبيلها. وعندما لجأنا إلى السرير، بدأتْ تتعرّى بخلع تنورتها وسروالها الداخلي، وهو الأمر الذي لا تقوم به المرأة في المعتاد. في المعتاد هي تخلع بلوزتها، ثم تبدأ بالتعرّي في الجزء العلويّ من جسمها. لكنّها أبقتْ سترتها وصدريتها. قلتُ «ألنْ تخلعي صدريتك وسترتك؟»، قالت، «نعم، ولكن لا أريد أنْ أُثير دهشتك. إنني أعاني من خطب». ابتسمتُ، وحاولتُ أنْ أستخفّ بالأمر، «أخبريني، ما الخطب؟»، قالت «في ثدييّ شيء سوف يصدمك»، «أوه، لا عليك.

أريني» وفعلتْ. وبدأتُ أبالغ في تصرفاتي، أُقبِّل الوحمة، وألمسها، وأعبث بها، وأتصرّف بأدب، وأجعلها تشعر بالسعادة لوجودها، وقلتُ إنها تُعجبني. وليس سهلاً القيام بمثل هذه الأشياء. ولكن على المرء أنْ يتولّى حلّ المشاكل، أنْ يتصرَّف بهدوء، ويُعالج الأمور بكياسة، وألّا يتوانى عن القيام بأيّ شيء يواجه الجسد. بقعة النبيذ تلك كانت تشكّل مأساة بالنسبة إليها، ذات الأقدام الخمسة والبوصات الستّ. كان ذلك الطول المُذهل يجذب الرجال إليها، كما جذبني. وتحكي القصّة نفسها لكل رجل: «إنني أعاني من خطب»

الصور الفوتوغرافيّة. لن أنسى أبداً كونسويلا وهي تطلب مني أنْ ألتقط تلك الصور. كان يمكن أنْ يبدو المشهد لكل مُتلصِّص يتلصَّص من الخارج كأنّه مشهد من فيلم إباحيّ. لكنّه كان أبعد ما يمكن عن أيّة إباحيّة. «هل معك آلة التصوير؟»، قلتُ «معي آلة التصوير» «هلّا التقطتَ بعض الصور لي؟ لأنني أريد أنْ أُصوّر جسمي كما عرفتَه. كما رأيتَه. لأنه قريباً لن يبقى كما كان. أنا لا أعرفُ أحداً غيرك يمكنني أنْ أطلب منه هذا. لا أستطيع أنْ أطلب هذا من رجلٍ آخر. وإلّا لما أزعجتك»، قلتُ لها «نعم، سوف نفعل هذا. سوف نفعل أيّ شيء. أخبريني ماذا تريدين. اطلبي ما تشائين. أفضي لي بكل شيء»، قالتْ «هلّا أدرتَ مقطوعة موسيقيّة، ومن ثم أحضِرْ آلة التصوير؟» سألتُها «أي نوعٍ من الموسيقى تريدين؟»، «شيئاً لشوبرت. مقطوعة من موسيقى الغرفةٍ لشوبرت»، قلت «حسن، حسن»، لكنني قلت في نفسي، ولكن ليس مقطوعة «*الموت والحسناء*»

لكنّها لم تطلب مني أنْ أرسلِ إليها نُسخاً من الصور. تذكّر أنَّ كونسويلا ليست أذكى فتاة في العالم. لأنَّ الصور الفوتوغرافيّة كانت سُتصبح قصّة أخرى. كان الأمر سيتطلّب تدابير أخرى. كانت استراتيجيتها ستطلَّب تفكيراً. ولكن مع كونسويلا، هناك عفويّة شبه واعية في كل ما تفعل، هناك صوابٌ، على الرغم من أنّها ربما لا تعلم ماذا تفعل أو لماذا بالضبط. ومجيئها إليّ لكي ألتقط لها صوراً، كان شديد القُرب من الطبيعة، من فِكر أصيل منجرف، من الحدس، ولا يكمن خلفه فِكر متعمّد. يمكنك أنْ تتعمّد التفكير أما كونسويلا فلا تفعل هذا. إنَّها تشعر بأنَّ عليها أنْ تفعل هذا، كما

تقول، لكي تُقدِّم وثيقة لي، أنا الذي أحبَّ جسدها حبّاً جمّاً، وما يتّسِم به من رُقيّ، ومن مثاليّة. ولكن هناك الكثير من الأسباب الأخرى.

لقد لاحظتُ أنَّ معظم النساء لا يهتممن بأجسادهن حتى وإنْ كنَّ، على غرارها، جميلات في العموم. ليس كلّهن يعلمنَ أنهن جميلات. إنَّ الأمر يتطلَّب نمطاً معيَّناً من النساء ليعرفن ذلك. وغالبيتهن لديهن شكاوى حول شيءٍ ما لسنَ في حاجة إلى الشكوى منه. وفي الغالب يردن أنْ يُخفين أثداءهنّ. ثمة إحساس بالخزي لا أعرف مصدره، ويجب أنْ تُطمئنهن طويلاً قبل أنْ يكشفنَ عنها مع أدنى إحساس بالاستمتاع الحقيقيّ وعرضها للأنظار باستمتاع حقيقي. حتى الأوفر حظاً بينهن. هناك فقط بعض منهنّ يعرضن أنفسهن بحريّة، وفي هذه الأيام، وبسبب كل الجدل العنيف، لسنَ في الغالب من صاحبات الصدور المثاليّة التي يمكن أنْ تبتكرها بنفسك.

لكنَّ الطاقة الجنسيّة لجسد كونسويلا - انتهتْ. نعم، في تلك الليلة حصل لديّ انتصاب، ولكن لم أتمكّن من إطالة أمده. إنني محظوظ جداً لحصولي على انتصاب وعلى الدافع، ولكن كنتُ سأقع في مشكلةٍ كبيرة لو أنّها طلبتْ مني أنْ أُضاجعها في تلك الليلة. كنتُ سأقع في مشكلة كبيرة عندما ستطلب مني ذلك حالما تستعيد صحتها بعد إجراء العمليّة الجراحيّة. وهذا ما سيحدث. لأنها ستفعل ذلك، أليس كذلك؟ فلتجرِّب هذا أولاً مع شخصٍ مألوف وعجوز. ولمصلحة ثقتها بنفسها، ولكبريائها، من الأفضل أنْ تجرِّب معي وليس مع كارلوس ألونسو أو مع شباب آل فيلاريل. إنَّ السن لا يؤثِّر كما يؤثِّر السرطان، لكنّه يؤثّر بقدرٍ كافٍ.

الجزء الثاني. تسألني بعد مرور ثلاثة أشهر، تتصل بي هاتفيّاً وتقول «دعنا نجتمع»، ثم تخلع ملابسها من جديد. هل هذه هي الكارثة التالية؟

هناك لوحة فنيّة للرسّام ستانلي سبنسر مُعلّقة في متحف تيت، لوحة «عاريان» وتمثّل سبنسر وزوجته وهما في منتصف أربعينيات عمريهما. إنها جوهر المُباشَرَة لمعنى التعايُش، وعن عيش الجنسين معاً على مرّ الزمن.

توجد في أحد كتب سبنسر في الطابق السُفليّ. سوف أُحضِره لاحقاً. تمثّل سبنسر جالساً، القرفصاء، بجوار زوجته المُضطجعة. هو ينظر نحو الأسفل إليها بتأمّل من مسافة قريبة من خلال نظارته ذات الإطار الشبكيّ. ونحن، بدورنا، ننظر إليهما عن قُرب: جسدين عاريين أمام وجهينا مباشرة، الأفضل بالنسبة إلينا أنْ نرى كيف أنّهما لم يعودا شابّين وجذّابين. ولا سعيدين. هناك ماضٍ ثقيل يتشبّثُ بالحاضر. وبالنسبة إلى الزوجة على وجه الخصوص، كل شيء بدأ يتراخى، ويتكثّف، وبعد ذلك سيصبح اللحم أكثر تخشّباً وليس تحزّزاً.

عد حافة الطاولة، في مُقدّمة اللوحة مباشرة، هناك قطعتان من اللحم، ساق كبيرة من لحم الغنم وشريحة صغيرة واحدة. اللحم النيء وُضِعَ بدقّة فيزيولوجيّة شديدة، بالصدق الصارم نفسه الذي يتّسِم به الثديان المتراخيان والقضيب المتدلّي، الواضح، الذي لا يبعد أكثر من بضع بوصات خلف الطعام النيء. ربما أنت تنظر من خلال نافذة دكان لحّام، ليس إلى اللحم فقط بل إلى التشريح الجنسيّ للزوجين أيضاً. وكلما فكّرتُ في كونسويلا، تتراءى لي ساق لحم الغنم الشبيهة بهراوة بدائيّة بجوار جسديّ الزوج والزوجة المكشوفَين بوقاحة. إنها هناك، شديدة القُرب من فراشهما، وكلما أطلتَ النظر يُصبح وجودها أقلّ تنافراً فأقلّ. هناك تكيُّفٌ كئيب في تعبير وجه الزوجة المذهول نوعاً ما وهناك كتلة اللحم المقتطعة التي لا صِلة لها بخروف حيّ، ومنذ ثلاثة أسابيع، منذ زيارة كونسويلا، وأنا عاجز عن محو الصورة من ذهني.

***

راقبنا العام الجديد يقتربُ في العالم، والهستيريا الجماعيّة التي لا مُبرِّر لها المتمثّلة باحتفالات عشيّة العام الجديد الألفيّ. والسطوع البرّاق عبر المناطق الزمنيّة، التي لم يُضرم بن لادن أياً منها. والضوء يلفّ ليل لندن بإبهارٍ أشدّ من أي شيء منذ المشاهِد الرائعة للدخان الملون المنبعث من قصف لندن[1]. وبرج إيفل يُطلِقُ الألعاب الناريّة، الشبيهة بالسلاح القاذف

1- أي في أثناء الحرب العالميّة الثانية.

للّهب الذي كان يمكن لفيرنر فون برون[1] أن يكون قد صمّمه للقضاء على مستودع هتلر من السلاح المُدمِّر - قذيفة القذائف التاريخيّة، صاروخ الصواريخ، قنبلة القنابل، وباريس العتيقة منصّة إطلاق والهدف هو الإنسانيّة جمعاء. وطوال الأمسية، وعبر وسائل الإعلام في كل مكان، تنتشر السخرية من وقوع المعركة الفاصلة التي كنا في انتظارها ونحن في ملاجئنا في الفناء الخلفيّ منذ السادس من شهر آب، عام 1945. كيف كان يمكن لهذا ألّا يحدث؟ حتى في تلك الليلة بالذات، بل خاصّة في تلك الليلة، يتوقع الناس الأسوأ وكأنَّ الأمسية هي تدريب طويل على الغارات الجويّة. انتظار سلسلة من قنابل هيروشيما الرهيبة لكي تُدمِّر بتزامُن واحد ما تبقّى من حضارات العالم. إما الآن أو أبداً. ولا يحدث ذلك أبداً.

ربما بهذا كان الجميع يحتفلون - بأنَّ الأمر لم يقع، لم يقع قط، بأنَّ كارثة حلول النهاية لن تحلّ أبداً. كل الاضطراب هو اضطراب مُنظَّم بفواصل من أجل بيع السيارات. والتلفزيون يؤدي العمل الذي يُحسِن القيام به: نصر التفاهة على مأساتنا. نصر السطح، مع باربرا والترز[2]، وبدل تدمير المدن العريقة، يحدث انتشار عالميّ للسطحيّ، وتفشٍّ كلّي للنزعة العاطفيّة لم يشهدها حتى الأميركيون من قبل. ومن مدينة سيدني إلى بيت لحم إلى ساحة تايمز، تظهر من جديد العبارات المُبتذلة بأقصى سرعة. بلا تفجير قنابل، ولا سفك دماء - والهدير التالي الذي تسمعه سوف يكون هدير النجاح وازدهار الأسواق الاقتصاديّ. ويُصبح أدنى وضوح للبؤس عاديّاً في عصرنا الذي خدَّرته الإثارة المُبهِرة لأفخم وهم. وعندما أراقب هذا الإنتاج المُعدي للصخب المُدبَّر، ينتابني إحساس بوصول عالم المال بشوق إلى العصور المُظلِمة المُزدهرة، إلى ليلٍ من السعادة الإنسانيّة يؤدّي إلى البربريّة، من أجل الترحيب بصورة لائقة بقذارة وسفالة الألفيّة الجديدة. ليلة ليست للذكرى بل للنسيان.

فيما عدا الأريكة التي أجلسُ عليها وأحضن كونسويلا، تضمّ ذراعاي

1- فرنر فون برون (1912-1977): مُصمم صواريخ أميركي، وُلِدَ في ألمانيا. وصمم صاروخ V-2 - المترجم

2- باربرة والترز: مُقدمة برامج ومُذيعة أميركيّة شهيرة.

الجزء العاري منها، وأُدفئ ثدييها بيديّ ونحن نراقب وصول عشيّة العام الجديد إلى كوبا. لم يتوقَّع أيٌ منا أنْ يتجسَّد *هذا* على الشاشة، ولكنّنا نشاهد هافانا أمامنا. ومن مُدرَّج مُكتظ بآلاف السيّاح ويُسمّي نفسه نادياً ليليّاً يظهر تجسيد يمثّل دولة بوليسيّة مُحنّطة لعرض كاريبيّ مُثير كان يجذب كبار المُنفقين في أيام الرعاع. نادي تروبيكانا الليليّ في فندق تروبيكانا. لا يُشاهَد أي كوبيّ خلاف المؤدين المُسلين الذين لم يكونوا مُسلّين البتّة، والكثير من الشبّان -تقول محطة الـ ABC إنهم يعدّون ستة وتسعين- يرتدون أزياء بيضاء سخيفة ولا يقومون بالرقص والغناء بقدر ما يدورون حول خشبة المسرح ويصيحون في مذياع يحملونه في أيديهم. والراقصات أشبه بمتحولات جنسيّاً بسيقان طوية ونحيلة من حي ويست فيليج اللاتيني يتمشّين في المكان وهنَّ يلهثن، ويضعن على رؤوسهن مظلات مصابيح بحجمٍ مُبالَغٍ فيه - بطول ثلاثة أقدام، وِفقاً لمحطة ABC. مظلات مصابيح على رؤوسهن ويتدلى عُرفٌ أبيض كبير ومتموج يتغضّن على ظهورهن.

قالتْ كونسويلا «يا إلهي» وطفقتْ تبكي. قالت، بغضبٍ شديد «هذا، *هذا* ما أعطى للعالم. هذا ما عرضَ عليهم عشيّة العام الجديد». قلتُ «إنها حقاً مهزلة عجيبة. ربما هذا هو مفهوم كاسترو عن المُزاح»

أتساءل، أهو كذلك حقاً. أهذه سخرية غير واعية من الذات -هل كاسترو بعيد عن اللوم إلى هذه الدرجة- أم إنَّ السخرية متعمّدة بسبب كراهيته للعالم الرأسماليّ؟ كاسترو، الذي يضمر كراهية شديدة لفساد عهد باتيستا، الفساد الذي كان يمكن أنْ تعتقد أنّ نوادي ليليّة سياحيّة كهذا المُسمّى تروبيكانا ترمز إليه بالنسبة إليه، وأنَّ هذه هي تقدِمته في الألفيّة الجديدة؟ إنَّ البابا نفسه ما كان يمكن أنْ يفعل هذا -إنَّ لديه علاقات عامة واسعة. وحده الاتحاد السوفييتي القديم كان يمكن أنْ يكون كفواً لمثل هذه البهرجة. كان أمام كاسترو الكثير من الخيارات، والكثير من اللوحات الفنيّة الاشتراكيّة- الواقعيّة عتيقة الطراز: احتفال مزارع السُكّر، أو احتفال جناح التوليد، أو احتفال مصنع إنتاج السيجار. عيد تدخين العمال الكوبيّين، وعيد الأمهات الكوبيّات المُشرقات، وعيد إرضاع المواليد الكوبيين الجُدد... أما تقديم أسوأ أنواع التسلية للسيّاح؟ أكان الأمر مُتعمَّداً أم غباءً أم اعتُقِدَ أنّه

مُزحة مُناسِبة للسخرية من كل هذا الاحتفال الهستيريّ بالعلامة التي لا معنى لها على الشبكة التاريخيّة؟ كائناً ما كان الحافز، فإنّه لن يُنفِق قرشاً واحداً عليه. ولن يُبدِّد لحظة تفكير واحدة فيه. لِمَ يهتم كاسترو الثوريّ، لِمَ يهتم أي شخص، بشيءٍ يمنحنا إحساساً بأننا نفهم شيئاً لا نفهمه؟ مرور الزمن. إننا وسط التيّار، نغوصُ في الزمن، إلى أنْ نغرق أخيراً ونموت. هذا الحدث التافه حُوِّلَ إلى حدث جلل بينما كونسويلا هنا تعاني الحدث الأكبر في حياتها. إنَّها النهاية الكبرى، على الرغم من أنَّه لا أحد يعلم ما هي النهاية، إنْ كان لها معنى، وحتماً لا أحد يعلم ما هي البداية. إنّها احتفالٌ جامح لا أحد يعرف مناسبته.

وحدها كونسويلا تعلم، لأنَّ كونسويلا الآن تعرف جُرح التقدُّم في السن. لا أحد يعرف ما هو التقدُّم في السن إلّا الذي يتقدَّم في السن، لكنَّ الأمر لم يعُد كذلك بالنسبة إلى كونسويلا. لم تعُد تقيس الزمن كما يفعل الشبّان، بالعودة إلى نقطة البداية. إنَّ الزمن بالنسبة إلى الشبّان يتألَّف ممّا مضى، أما بالنسبة إلى كونسويلا فالزمن أصبح الآن يتألَّف من مقدار ما تبقّى لها من المستقبل، وهي لا تعتقد أنّه تبقّى منه أي شيء. الآن هي تقيس الزمن بالعدّ العكسيّ، بحساب الزمن باقتراب الموت. لقد كُسِرَ الوهم، الوهم الإيقاعيّ، والتفكير المُريح بأنّه، مع مرور الزمن، كل شيء يحدث في وقته المناسِب. أصبح إحساسها بالزمن الآن كإحساسي أنا به، ولكنْ أسرع في إيقاعه وأكثر بؤساً من زمني. في الحقيقة، لقد تفوّقتْ عليّ. لأنني ما زلتُ أقول لنفسي «لن أموت في غضون خمسة أعوام، وربما ليس بعد عشرة أعوام. إنّني أتمتع بلياقة، وبصحّة تامّة. بل يمكنني أنْ أعيش عشرين عاماً أخرى». في حين أنّها...

إنَّ أشدّ قصص الطفولة الخرافيّة إمتاعاً هي أنَّ كل شيء يحدث بانتظام. جدّاك يموتان قبل موت والديك بوقت طويل، ووالداك يموتان قبلك. وإذا حالفك الحظ تحدث الأمور على هذا النمط، الناس يتقدمون في السن ويموتون بانتظام، بحيث إنك في الجنازة تُخفّف ألمك بالتفكير في أنّ الشخص عاشَ حياةً مديدة. وهذه الفكرة لا تجعل غيابه أقلّ فظاعة، لكنها الخدعة التي نلجأ إليها لكي نُحافظ على الوهم المُنتظَم سليماً وعلى إبقاء عذاب الزمن في وضعٍ حرِج: «لقد عاش فلان الفلاني حياة مديدة». لكنَّ

كونسويلا لم تكن محظوظة، وهكذا تجلس إلى جواري، محكوماً عليها بالموت، بينما المهرجان الذي دام طوال الليل يجري على الشاشة، بهستيريا صِبيانيّة مُفبركة حول معانقة المستقبل المفتوح بسُبُلٍ لا يعرفها الراشدون البالغون، بما لديهم من معرفة كئيبة بمستقبلٍ محدود جداً. وفي هذه الليلة المجنونة، لا يمكن أنْ تكون معرفة أيّ شخصٍ أشدّ كآبة من معرفتها.

تقول «هافانا»، وتبكي بمزيد من الشدّة في تلك اللحظة، «اعتقدتُ أنني سوف أرى هافانا ذات يوم»، «سوف ترين هافانا»، «لن أراها. أوه، ديفيد، إنَّ جدّي...»، «نعم، ماذا عنه؟ هيا، أخبريني، تكلّمي»، «كان يمكن لجدّي أنْ يكون جالساً في غرفة الجلوس...»، «تابعي». كنتُ أحضنها بين ذراعيّ وهي تتحدث عن نفسها كما لم تفعل من قبل. قالت، من خلال دموعها السخيّة، «في أثناء إذاعة *«نشرة الأخبار»*، وبرنامج *«الأخبار مع ماكنيل-ليرير»*، ويتنهّد فجأة «*pobre mama*» (مسكينة ماما) التي كانت قد ماتت في هافانا بعيداً عنه. إنَّ جيلهما، ذاك الجيل، لم يُغادر البلد. «*pobre mama, pobre mama*» وبقيا فيها. لم يتبقّ له غير هذا الحزن، هذا الاشتياق إليهما. الاشتياق الشديد، والعنيف. وهذا ما لديّ. لكنّه اشتياقٌ إلى نفسي، إلى حياتي. وأتحسَّسُ نفسي، أتحسّسُ جسدي بيديّ، وأقول لنفسي، هذا جسدي! لا يمكن أنْ يموت! هذا ليس حقيقيّاً! لا يمكن أنْ يحدث! كيف يمكن أنْ يموت؟ لا أريد أنْ أموت! ديفيد، أنا أخاف الموت!»، «عزيزتي كونسويلا، لن تموتي. أنتِ في الثانية والثلاثين من العمر. لن تموتي قبل مرور وقت طويل»، «إنني أكبُرُ كالمنفى. لذلك تراني أخافُ كل شيء. أكنتَ تعلم هذا عني؟ ***إنني أخاف كلَّ شيء***»، «أوه، كلا. لا أعتقد هذا. تخافين كل شيء؟ ربما هذا ما تشعرين به هذه الليلة ولكن ليس-»، «هذا ما أشعر به ***دائماً***. لم أرغب في منفى عائلتي. لكنكَ تكبُر وتسمع مَنْ يقول طوال الوقت «كوبا، كوبا، كوبا»... ثم انظر إلى أولئك الناس! كم هم سوقيّون! انظر ماذا فعلوا بكوبا! لن أراها أبداً. لن أرى المنزل. لن أرى المنزل»، «بل نعم، سوف ترينه. حالما يرحل كاسترو -»، «بل *أنا* التي سترحل»، «لن ترحلي. سوف تبقين هنا. لا تجزعي. لا حاجة إلى الذعر. سوف تكونين بخير، سوف تعيشين-»، «أتريد أنْ تعرف الصورة التي أحملها؟ عن ذلك المكان؟ عن حياتي كلّها؟ الصورة

التي أحملها في ذاكرتي عن كوبا؟»، «نعم. أخبريني. حاولي أنْ تهدئي وأخبريني كل شيء. أتريدين مني أنْ أُطفئ جهاز التلفزيون؟»، «كلا-كلا. سوف يعرضون شيئاً آخر. **يجب** أنْ يفعلوا هذا»، «أخبريني عن الصورة التي في ذاكرتك، يا كونسويلا»، «إنها ليست صورة للشاطئ، ليست هذه. هذه في حوزة والديّ. إنَّ والديّ يتحدثان عن الأوقات الممتعة التي أمضياها هناك، والأطفال يركضون حولهما على الشاطئ، والناس يجلسون على كراسي الاسترخاء، ويطلبون مشروب الميموزا. كانا يستأجران منزلاً على الشاطئ وما إلى ذلك، ولكنْ ليس هذا ما أحمله في ذاكرتي، بل شيئاً آخر. إنني أحمله منذ زمن بعيد. آه، يا ديفيد - لقد أحرقوا كوبا قبل أنْ يُدفنوا بوقتٍ طويل. اضطرّوا إلى ذلك. والدي، وجدّي، وجدّتي، كلهم كانوا يعلمون أنهم لن يعودوا أبداً. ولم يعودوا قط. والآن أنا لن أعود»، قلتُ لها، «بل ستعودين»، ثم سألتها «ما هي الصورة التي تحملينها دائماً؟ أخبريني. تكلّمي»، «لطالما اعتقدتُ أنني سوف أعود، فقط لكي أرى المنزل، وأنّه سيكون ما زال قائماً هناك»، وسألتها «هل الصورة التي في ذاكرتك هي للمنزل؟»، «كلا. بل للدرب، إل ماليكون، ذلك الدرب الجميل، المُحاذي لمياه الشاطئ مباشرة. كان لديهم ذلك الجدار، والصور مُعلّقة عليه في كل مكان. هل رأيتَ ***نادي بوينا فيستا الاجتماعيّ***؟»، «رأيته. بسببكِ، طبعاً. عندما رأيته تذكّرتك»، قالت، «حسن، الدرب موجودٌ هناك، حيث تتحطم الأمواج. ذلك الجدار. إنكَ تراه للحظة واحدة. إلى هناك حسبتُ أنني سأعود»، قلتُ لها «الدرب الذي ربما يكون موجوداً»، قالت كونسويلا «بل **يجب** أنْ يكون موجوداً»، وبكتْ من جديد بكاءً مُرّاً بينما على الشاشة كانت فتيات الاستعراض، من تحت مظلات المصابيح (التي كانت كل واحدة منهن تزن، كما قيل لنا، أربعة عشر رطلاً) يتمشّين على خشبة المسرح بلا هدف. نعم، هذا حتماً ما قال كاسترو، «أيري فيك» للقرن العشرين، لأنّه يمثّل، أيضاً، نهاية مغامرته في التاريخ، ونهاية الأثر الذي تركه ولم يتركه على الأحداث الإنسانيّة. قلتُ لها «أخبريني، أنتِ لم تبوحي بهذا لي من قبل. لم تتحدثي هكذا قبل ثماني سنوات. ثم أصبحتِ مُستمعة. أصبحتِ طالبة عندي. ولم أكنْ أعرفُ هذا. تابعي. أخبريني بما كان ينبغي أنْ يحدث»، قالتْ «ذلك الجدار وأنا. هذا كل

شيء. أتمشّى هناك وأتحدث مع الناس. لا أكثر. تتمشّى على الشاطئ لكنكَ موجود في المدينة. إنها نقطة التقاء. ونزهة»، قلتُ «حسن، يبدو مُلخّصاً جميلاً في السينما»، «نعم. ولكن ليس هذا ما شاهدتُ في حياتي كلها»

ثم الحزن، ثم ثقل وطأة الحزن على كل من فقدته عائلتها، على وفاة والدها وجدّيها في المنفى، وعلى نفسها المشرفة على الموت في المنفى (المنفى الذي لم تشعر بمثل قسوته من قبل)، وعلى كل كوبا التي عرفتها عائلة كاستيللو ودمّرها كاسترو، وعلى كل ما خشيتْ أنْ تغادره قريباً - هذا كلّه كان رائعاً إلى درجة أنْ كونسويلا وهي مُستكينة بين ذراعيّ، طوال خمس عشرة دقيقة، نسيتْه. رأيتُ الرعب الذي كان ينتاب جسدها يتجسّد. «ماذا؟ ماذا في وسعي أنْ أفعل لأجلك، يا كونسويلا؟ أخبريني وسوف أُنفّذه. ما الذي يُعذّبكِ هكذا؟»

وهذا ما قالته لي عندما تمكّنت من الكلام. هذا ما قالت إنّه أشدّ ما يُعذّبها، وأدهشني. «كنتُ دائماً أُجيب والديّ باللغة الإنكليزيّة. أوه، يا إلهي. كم أتمنى لو أنني أجبته أكثر بالإسبانيّة»، «مَنْ تقصدين؟»، «أقصد والدي. كان يُحب أنْ أُخاطبه ببابي. ولكن بعد أنْ كبرت، لم أعد أفعل ذلك. أصبحتُ أخاطبه بأبي. *اضطررتُ* إلى ذلك. أردتُ أنْ أكون أميركيّة. لم أرغب في إثارة *حزنهم* كلّه»، «كونسويلا يا أعزّ الناس، لم يعُد يهمّ الآن بما تُخاطبينه. كان يعلم أنكِ أحببته. كان يعلم مقدار حبّك...» ولكن لا شيء كان يواسيها. لم أكنْ قد سمعتها تتكلّم هكذا من قبل، ولم أرها تتصرّف كما تصرّفتْ بعد ذلك. إنَّ في كل شخص هادئ وعاقل شخصاً آخر مُستتراً يخاف الموت بحماقة، ولكن بالنسبة إلى شخص في الثانية والثلاثين فإنَّ المسافة بين الآن وحينئذٍ شاسعة جداً، لا حدود لها، إلى درجة أنّه ربما فقط مرتين في العام، وللحظة أو اثنتين وفي وقتٍ متأخّر من الليل، يوشك المرء أنْ يواجه ذلك الشخص وهو في حالة من الجنون تتَّسِم به حياة الشخص الثاني اليوميّة.

ما فعلتْه عندئذٍ هو أنها خلعت قبعتها، ورمتها. في الواقع، طوال ذلك الوقت كانت تعتمر تلك القبعة الشبيهة بالطربوش، حتى وهي عارية وأنا ألتقط صوراً لثدييها كما طلبتْ. أما الآن فخلعتْها. مع تهتُّك عشيّة حلول العام الجديد، خلعتْ قبّعة عشيّة العام الجديد السخيفة. أولاً مهزلة كاسترو

في عرضٍ مسرحيّ إباحيّ والآن كشف النقاب بالكامل عن فنائيّة كونسويلا.

كان منظرها من دون قبعتها مُريعاً، امرأة في مُقتبل العمر وغاية في الجمال وشعر زغبيّ، شديد القِصَر، شعر خفيف، بلا لون، ولا معنى له – كنتَ تفضّل أنْ تراها صلعاء بعد أنْ تلجأ إلى الحلّاق وتحلِق شعرها على أنْ ترى هذا الزغب على رأسها. بالانتقال من التفكير في شخصٍ بالطريقة التي دائماً فكّرتَ بها في ذلك الشخص– الحيّ بقدر ما أنت حيّ –إلى ما يعني بالنسبة إليك، كما عنى بالنسبة إليّ انعدام شعرها الزغبيّ، أي أنَّ ذلك الشخص أصبح قابَ قوسين من الموت، يحتضر، أمرٌ في تلك اللحظة ليس بالإحساس بالصدمة فقط بل بالخيانة أيضاً، خيانة كونسويلا لاستيعابي بسرعة الصدمةَ وسردَ هذه الحكاية. وحلَّتْ بنا اللحظة المؤلمة عندما حدث التغيير، عندما تكتشف أنَّ توقعات الشخص الآخر لم تعُد تُشبه توقعاتك وأنّه مهما كان سلوكك لائقاً ويمكن أنْ تستمر فيه، فإنّه أو إنها سوف ترحل قبل أنْ ترحل أنت– قبل وقتٍ طويل، إنْ كنتَ محظوظاً.

ها هو بذاته، الرعب الذي يكمن في ذلك الرأس، رأس كونسويلا. قبّلته وقبّلته. أي شيء آخر كان في وسعي أنْ أفعل؟ إنّه سُمّ العلاج الكيميائيّ. هذا كل ما فعله لجسمها. هذا كل ما فعله بعقلها. إنها في الثانية والثلاثين من العمر، وتعتقد أنّها منفيّة من كل شيء، وتمرّ بكل تجربة للمرَّة الأخيرة. ولكن ماذا لو أنها ليست كذلك؟ ماذا –

إنّه يرن! الهاتف! يمكن أنْ تكون –! كم الساعة؟ إنها الثانية صباحاً. بعد إذنك!

نعم. إنها هي. لقد اتصلتْ. أخيراً اتّصلتْ. يجب أنْ أغادر. إنها في حالة رعب. سوف تخضع لعمليّة جراحيّة في غضون أسبوعين. وقد خضعَتْ لآخر جلسة علاج كيميائيّ، وطلبتْ مني أنْ أخبرها عن مدى جمال جسمها. لهذا غبتُ طويلاً. هذا ما أرادتْ أنْ تسمع. هذا ما كانت تتحدث عنه منذ حوالي ساعة. عن جسمها. أتعتقد أنّه بعد أنْ تخضع للعمليّة الجراحيّة سوف يُحبّ أي رجل جسمها؟ هذا هو السؤال الذي لا تني تطرحه مراراً وتكراراً. في الواقع، لقد قرّروا الآن أنْ يستأصلوا الثدي بأكمله، كانوا ينوون أنْ يغوصوا

تحت الثدي ويستأصلوا جزءاً منه. أمّا الآن فيعتقدون أنَّ تلك عملية جراحيّة غاية في الخطورة، ولذلك هم مُضطرون إلى استئصاله. وقبل عشرة أسابيع أخبروها بأنهم سوف يستأصلون فقط جزءاً منه، والآن يُخبرونها بأنهم سوف يستأصلون الثدي كلّه. ألفتُ انتباهكَ إلى أننا نتحدث عن ثدي. وهو ليس شيئاً صغيراً. في صباح هذا اليوم أخبروها بما سيحدث، والآن حلَّ الليل، وهي وحدها مع توقّع كل شيء... يجب أنْ أذهب. تريد مني أنْ أذهب إلى هناك. تريد مني أنْ أنام معها على السرير هناك. إنها لم تأكل أيّ شيء طوال النهار. يجب أنْ تأكل. يجب إطعامها. أمّا أنت؟ فابقَ هنا إذا شئت. امكث إذا شئت، غادر إذا شئت... اسمع، لا وقت لديّ. يجب أنْ أُسرِع!

«لا تذهب»

ماذا؟

«لا تذهب»

ولكنْ يجب أنْ أذهب. يجب أنْ يكون أحدٌ معها...

«سوف تعثر على شخص آخر»

إنها في حالة رعب. أنا ذاهب.

«فكِّر في الأمر. فكِّر. لأنكَ إذا ذهبت، فسوف تنهار»

- انتهى -

